علي الشدوي

الذئب
ومخلوقات أخرى

رواية

طوى

علي الشدوي

الذئب
ومخلوقات أخرى

رواية

طوى للنشر والإعلام

Book: Altheb Wa Mekhloqat Okhra
الكتاب: الذئب ومخلوقات أخرى - رواية
Author: Ali Al-shadawi
المؤلف: علي الشدوي
Cover Plate: Rama Jamoukha
الغلاف: راما جاموخه
First Edition: 2011
الطبعة الأولى ٢٠١١
All rights reserved
حقوق الطبع محفوظة ©
طوى
طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: منشورات الجمل
Al-Kamel Veralg
Postfach 210149 Köln. Germany
Tel: 0221736982 Fax: 02217326763
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form otherwise, without or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or the prior written permission of the publisher.

الكتاب الأول

استطرادٌ

- ١ -

أُدرك أن ما يُدعى الذكرى هو جزء من هذا العالم. العالم تجربتي، ثم ذاكرتي بعد ذلك. أتذكر الآن كما لو كان البارحة مساء ذلك اليوم من عام ١٩٧٦ م الذي غادرت فيه جبل شدا الأعلى. قبل أسبوع من ذلك المساء أنهيت المرحلة الابتدائية. كنت قد التحقت بالمدرسة في سن مبكرة. فرصة تهيأت لأمي لأحصل على وجبة غداء مجانا. أمي التي ما زلت أتذكرها وهي واقفة طرف ساحة البيت ترقبني حتى تبتلعني منعطفات القرية وأشجارها.

حينما أنهيت المرحلة الابتدائية كانت أمي سعيدة، تضحك، لم أرها هكذا قط، يوم لن أنساه أبداً؛ لأنه مازال يولد في داخلي أسعد نهار في أحلك الليالي. أما فيما يتعلق بي آنذاك؛ فهناك فراغ في ذاكرتي الآن. لقد حرمتني الأيام والليالي من أحاسيس طفولتي، وعواطفها، وردود فعلها الأولية، ومن المحال أن أشعر الآن بما شعرت به آنذاك؛ لذلك لن أخترع مشاعر لا تجدي.

آنذاك، وفيما جدتي واقفة كما لو أنها تستقبلني لا تودعني، شعرت بأن أمي تحمل شيئاً أكبر من حمل نفسها، ربتت على كتفي ولم تتكلم، غير أن صوت وداعها أتى من السماء، ومن صدوع

الأرض، ومن حفيف أوراق نباتات القرية وأشجارها. انحدرت من أعلى تل عبر طريق مرصوف بالحجارة، ثم انعطفت يميناً فلم أعد أراهما. وحيدا وبعيداً مثل نجمة وحيدة في السماء.

إنني أقلب هذه الذكريات، وأتساءل ما إذا ظهرت آنذاك أول فجوة في حياتي؛ حينما مات أبي وأنا لا أعرفه، والفجوة الثانية في ذلك المساء؛ حينما تفحصتني أمي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي؛ لتبتسم ابتسامة غالت فيها إلى حد القنوط، ثم القنوط ذاته الذي يقود إلى المغالاة.

لم تكن تلك التي وصلت إليها مع غروب الشمس مدينة. المخواة الأكبر من أي قرية من قرى جبل شدا الأعلى، وفيما أنا أتأمل البيوت، والعشش، والصنادق، ومجاري الصرف الصحي المكشوفة، كانت الكلاب تنبح من غير أن ترفع رؤوسها، نباحاً لا تبدو له نهاية؛ فكلما سكت كلب أتى نباح كلب آخر ليحتل موقع نباح الأول، واستمر نباحها يطاردني بقية الليل.

وأنا هناك حول حنيني جبلَ شدا الأعلى وقراه إلى أمكنة مثالية؛ حيث الأرض المفروشة بطبقة سميكة من الأعشاب، والأشجار التي تعرّشت، والأخرى التي مدت فروعها في كافة الاتجاهات، والطيور التي تروح وتجيء ماحية الحدود التي أقامها البشر بين الأراضي الزراعية. السماء الزرقاء التي تمتد في جميع الجهات كدائرة تسور الأفق، ونتف الغيوم التي تتناثر فوق صفحة السماء، وقطرات الندى التي تتلاشى في الصباح كما لو كانت تقول: الجسد والروح متلازمان.

آنذاك ولكي أعود إلى جبل شدا الأعلى هناك وسيلة وحيدة هي أن أستقل سيارة من المخواة لكي أمر على قرى الخربان، وبني عاصم، وقدران، لأصل إلى وادي مليل. ثم من هناك أصعد عبر طريق للمشي يُسمى عقبة شدا الأعلى؛ شُق في الجبل وفُرش بحجارة مستطيلة وضخمة عام١٩٦٤م بمساهمة مالية من الدولة، وبمجهود عضلي من أهالي الجبل.

الآن هناك طريق معبّد من المخواة إلى قرية قدران. من هناك يمتد طريق غير معبّد، طريق قصير وملتهب بالشمس إلى وادي مليل. ثم يصعد الجبلَ طريقٌ ترابي، مرصوف، ومصبوب. ضيّق لا يكاد يتسع سوى لسيارة واحدة، تَتْبَع خطوطا مرسومة بدهانات على الصخور؛ لكي يتبين السائقون طريقهم. ذلك هو الطريق التي سلكتُه وأنا أعود إلى جبل شدا الأعلى.

حيث أنا في الأسفل رأيت جبل شدا الأعلى؛ شكلا يرتفع في السماء، ضخما ومستديرا، لكن ضخامته قَلّت ورقّت وهو يعلو، بحيث لم يعد يظهر سوى مصلى إبراهيم قبالة السماء الزرقاء. ما إن رأيته حتى أردت رؤيته مرة ثانية. تمنيت أن يلتف حولي كشفافية عميقة وبلا نهاية. هناك حيث تستجيب قمته لانتظاري، القمة التي ما إن أودعها في مكان حتى أجدها في مكان آخر.

أراني جبل شدا الأعلى ما هو أكبر؛ لكي يكون هناك ما هو أصغر، قال لي ما هو حقيقي؛ لكي يكون هناك ما هو مزيف، حلق بي في الخيال؛ لكي يكون هناك ما هو واقع، أبدعني بحيث لم أعد

أعرف أي جزء مني ينتمي إلى الحلم، ولا أي جزء مني ينتمي إلى الواقع، حتى وصلت إلى الظن بأنني أعيش كل ما كنت أحلم به. يخفي كنوزا من المعاني في كل نتوء أو صخرة.

فيما لو قدر لك أن ترى القارة. تلك الكتلة الضخمة في الجبل. الكتلة التي نهضت في السنين المبكرة، وغير المعروفة، نهضت كالربيع في قلب الصيف، فستشعرك كتلتها بالفوضى، لكن ما إن تتمعن فيها حتى تظهر صورة امرأة متخلّعة، كما لو كان لديها فائض من المرافق والركب.

إذا لم يتجه إدراكك نحو امرأة فحتما ستستحضر الرقم (١)، الرقم الفردي الذي لا يحب العالم في الصورة التي يراها عليه، بل يرغب في تعديله أو تغييره، بالإضافة عليه أو دفعه إلى الأمام.

وأنا أصعد الجبل اندهشت كما لو كنت أرى للمرة الأولى ما تعودت على رؤيته سنين عديدة. حدقت في كل ما رأيته. أجل، نظرت بالطريقة نفسها التي كنت أنظر بها في سنوات طفولتي. المشهد جلي وواضح إلى حد أنني شعرت فيه بحرارة أنفاس ذلك الطفل الذي كنتُه.

إن الذي أبقى حياتي الحقيقية هو ذاكرتي التي استسلمتُ لها، لتقودني عبر دروب الجبل التي بدت كما لو أن أحدا لم يسر فيها قط. فيما أنا أسير كنت أتساءل: لم تملكني الذاكرة؟ ولم أنا عاجز عن أن أتملص منها؟ أو حتى عن أن أسكتها؟ وبينما اختارت ذاكرتي ما يلزمها، واستخدمتني لكي تنجز ما هي عليه، علمت أنني سأسقط

فيها بينما أنا أعبر القرى، وأنها تجرني إلى حيث لا أريد أن أتذكره. وفيما أنا أعبر كان الجبل هو الجبل، والقرى هي القرى، فمن أين تأتي غربتي؟ من أن كل شيء لم يكن كما كان حتى وإن ظهر كذلك.

ها أنا أقف على مشارف قرية السلاطين الموحشة التي بدت كما لو أنها لم تسكن قط، الدروب ميتة، والسماء زرقاء، ما من غيمة واحدة تعكر صفوها، ولا حتى الضباب الخفيف الذي يغطي عادة القمة التي تحرسها من الناحية الغربية. لحظة أسى تلك التي اكتشفت فيها أن ما كنت أظنه مستودع طفولتي خراب لا شكل له ولا حدود. قريتي التي نسيتني دروبها، عاشت بدوني، وحينما عدتُ لم تتعرف علي، أنا الذي أسير فيها وحيدا وكائنا غريبا.

كل شيء في القرية غارق في الصمت؛ حتى الرياح التي كانت تحرك رؤوس الأشجار توقفت. لم يكن هناك سوى القرود. قرد ضبح في مكان ما. ضباح أتى من مكان خارج القرية. مكان ما، ربما قرب مصلى إبراهيم أو من الغابة القريبة منه. وربما من الصمت والعزلة التي كنت أعيشها.

كان بمقدوري أن أرى وهج البرق، وأن أسمع دوي الرعد. هناك فوق جبل شدا الأسفل المقابل لجبل شدا الأعلى. بدا لي كما لو أن عاصفة ممطرة تتكون، وتتهيأ هناك لكي تصل إلى هنا. دلتني خبرتي على أن العاصفة ستنتهي في وادي ناوان الذي يفصل بين الجبلين.

لم يحدث قط أن شعرت بثقل الحياة مثلما شعرت بذلك وأنا أعبر دروب قريتي. شعرت كما لو أن بيوتها ترزح فوق القرية، وأن

القرية ترزح فوق الجبل، وأن الجبل يرزح فوق الأرض، وأن الأرض ترزح فوق الكون، وأن الكون يرزح فوقي. أيكون الثقل الذي شعرت به تجليا لفكرة النفي أو الحنين إلى ما كنت قد تركته هنا من سنوات؟! أنا الذي لم يكن لدي سوى ذكريات طفولتي.

لم تكن بيوت القرية كثيرة: أحد عشر بيتا؛ بعد أن هجرها الناس تساقطت سقوفها، وتخلعت أبوابها، تحيط بها أراض زراعية امتلأت بالأعشاب. هناك مسجد القرية الوحيد الذي وقف على مئذنته غراب، ودروب الحيوانات كطرق النمل التي تؤدي إلى المزارع. تغيرت القرية أكثر مما كنت أتوقع؛ إلى حد أنني شعرت بعدم عيشي فيها، وأنني لم أكن هنا في يوم من الأيام.

أحد هذه البيوت هو بيتنا؛ بيت مبني من الحجر ما زال جزء منه متبقيا إلى الآن. لا أعرف لم ضاق إلى ذلك الحد، حتى أنني شككت أنه بيتنا الذي كنا نعيش فيه. يجاور بيتنا مجرى أحد السيول، وأنا أتأمله سمعت هدير السيول، هدير يعود بذاكرتي إلى الوراء، صوت سمعته في صمت؛ ليس لأن المجرى ما زال يسيل؛ إنما لأن صوت السيل ما يزال في ذاكرتي.

في ذلك العمر لو كان أبي حيا لاختلف الوضع، لكن أسرتي تتكون من أمي وأربع أخوات، وقريبة لي من ناحية أبي هي جدتي، وحين أعيد النظر الآن أفترض أن جدتي لم يكن في وسعها أن تذهب إلى أي مكان من غير أن تصطحبني معها؛ لأن أمي مشغولة،

وأخواتي مشغولات معها. ثم لأن جدتي عادة ما تحكي لي حكايات مرعبة إلى حد لا أستطيع فيه أن أبقى وحدي.

كان أمرا مفعما بالحياة حين يروننا أهالي القرية ونحن نغادر بيت جدتي، بعد أن ينسحب ضوء الشمس شيئاً فشيئاً ليبقي ذلك اللون الأحمر الذي يزداد عمقا حتى يبدو الجبل كما لو كان مغموسا في الدم، ونبدو نحن كما لو كنا في أعماق الدماء قبل أن يشرع اللون الأسود، لون الليل. كان ذلك مشهد المغيب المعتاد في جبل شدا الأعلى، المشهد الذي يرتسم كل ليلة.

تسمي جدتي تلك الغلالة الحمراء شمس الموتى؛ لأن الموتى خرجوا من قبورهم يتشمسون. يدي في يدها. نتوقف لكي تحيي رعاة الغنم، وتسألهم عن أحوالهم، بينما هم يظلون يتحدثون عن المراعي التي قلّت، ثم نمضي لكي نمر ببنات القرية وهن رائحات. كان أمرا مفعما بالسعادة وأنا أستمع إلى ضحكهن المكتوم، وهن يتأملن جدتي كما لو أنها هبطت من كوكب آخر.

يوحي صعودنا التل بالاتجاه نحو اللانهاية، كما لو أنه يفضي إلى السماء، وبقدر ما كنا نصعد الطريق، كنا ننفّر نعجة هنا، وماعزا هناك، وتنفر الطيور في اتجاهات مختلفة. أحيانا كنا نرى فرقا من القرود. وفي كل مرة كانت تعتريني قشعريرة كما لو أنني فوجئت أكثر من تلك التي فرّت. كانت جدتي تضرب الأعشاب العالية بغصن يابس لكي تنفر الطيور والحيوانات قبل أن نصل إليها كي لا يخوفني نفورها، وكنت أقلدها في ذلك.

الآن أنا أقف على التل نفسه وأفكر في صلابة الجبل، في كتله الضخمة التي تخفي كنوزا من المعارف، من قممه التي تقابل العالم وتسمو عليه، من سوء فهم الجبال التي تولد الشك، من رجاله الذين لا ينحنون إلا مرتين: حينما يشربون الماء، وحينما يقطفون وردة ليهدوها امرأة.

ـ ٢ ـ

فيما لو قدر لأحد منكم أن يكون معي، فسيرى تكاثف البيوت في الأمكنة المرتفعة، وحيثما عبر ونظر، سيجد تنظيما محكما للأراضي الزراعية. قريبا من البيوت توجد أراض زراعية لمنتجات اللوبيا والطماطم والكادي والبرك والريحان. تقع خلفها مباشرة مزارع الذرة والدخن والشعير، وعلى تخوم هذه توجد مزارع البرتقال والتفاح والخوخ والرمان تتخللها مزارع العنب، بعد هذه الأراضي توجد مزارع البن الشدوي، ثم تأتي بعدها الأراضي المخصصة للرعي.

على امتداد قرون طويلة مارس أهالي جبل شدا الأعلى النشاط ذاته؛ يزرعون بالطريقة ذاتها، وفي الحقول التي لم تتغير ملامحها منذ أمد بعيد. يرعون بالطريقة ذاتها، بعيدا عن المزارع. يموت كبار السن والأطفال أو يقتلون، وتتلاشى أفخاذ من العائلات، لكن هناك مجموعة البشر التي تبقى حية،، مجموعة مهيأة لأن تحتضن مواليد جددا لتفرض عليهم نمط العيش المعتاد.

لم يكن هناك جياع بين أهالي الجبل؛ فهناك شيء يبقى من كل شيء، تُحصد الحقول، فيبقى حزمة، وتُجني المزارع فتبقى بعض

الثمار. هناك دائما شاة زائدة، في كل حظيرة. ووجبة زائدة في كل عِلّيّة، وعرنوس ذرة في كل كيس. كل هذا سيُترك للفقير أو المحتاج المار أو الصغير.

سيظن الزائر جبل شدا الأعلى أن أهالي الجبل مستقرون، غير أنه ظن في غير محله؛ فالكثير منهم سافر إلى اليمن والحبشة والسودان وأرتيريا. وألقاب بعضهم ما زالت تشير إلى هذا. لقد زرعت رغبة التنقل في أصلهم، ويخيل إلي الآن أن كل رجل منهم ولد وروحه طريدة الذعر.

لم يكن أهل الجبل معزولين. في الواقع عاشوا في وسط من الإشارات والعلامات والرموز. سيجوب الشدوي جبل شدا الأعلى منذ طلوع الفجر. سيكون النهار صحوا، ثم تلف الغيوم الجو، وسيكون بإمكانه أن يتكهن بنزول المطر. ستطمئنه خضرة الأوراق إلى أن هناك موسم رعي جيد.

سيكون بإمكانه أن يميز بين نبتة غير سامة ونبتة سامة يبعد عنها غنمه. ستنبؤه التربة بالمحصول الذي سيزرعه. وستقول له رائحة جيفة أي حيوان هي. وربما أنبأه غراب أو نسر. وسيشير إليه أثر ما أي كائن مشى. يحدث هذا لا لأنه يعيش في جبل؛ إنما لأن الجبل يتكون من الناس.

يمر الزمن منفذا مهمته التدميرية، وأثناء ذلك تحتضر بعض العائلات. يقع هذا ببطء. سم الشوكران الذي ينساب في الدم. تشعر العائلة بما يمكن أن يحدث، وبما سيحدث، لكن كل جيل يأتي

يتعلم ألا يسرف في الحزن، أصبحوا لا يرون في هذا التلاشي البطيء إلا جوانبه الخفيفة والطريفة والمسلية لكي يهربون من همومهم الحاضرة إلى ذكرى هموم أكبر وأطغى.

يحبون السخرية والدعابة ويروون النكت. يتحدثون عن ذلك الغازي التركي الذي دخل إلى أحد البيوت، وكان في ركن البيت شدوي كفيف البصر. بحث التركي في البيت فوجد قدرا من الفخار مملوء باللبن، فشرع يغرف بيديه ويشرب. سمعه الشدوي الأعمى فقال للتركي من غير أن يعرف ما هو «اشرب بالمذربة ولا تخرب الحقينة» أي اشرب بالملعقة ولا تفسد علينا اللبن.

فكر التركي أن الخليعي الأعمى رجلا مبصرا، فطرحه التركي ووضع سكينا على رقبته. لم تكن سكين التركي حادة، وكان الأعمى يقول «اللوه.. اللوه» أي أنني أتألم، بينما يكلمه التركي قائلاً «صبر أبويه صبر» حتى قطع رأس الأعمى، وذهب به إلى الباشا التركي لكي يحصل على مكافأة لأنه قتل شدوي.

دائما ما كان يعيش من كل عائلة شيخ واحد إلى أرذل العمر؛ لكي يحكي للجيل الجديد منهم ما حدث، وما يمكن أن يحدث. يتظاهر الشيخ بالهدوء، وعدم المبالاة، ويحكي بشيء من خفة الروح. كل شيخ يرى من واجبه أن يهيئ الجيل الجديد، لكن بهدوء ومن غير ضجة. ولكي يفعل ذلك يكبح عواطفه، ويخفي همومه ومخاوفة، ويدسها هناك؛ في أعمق عمق من أعماقه.

تلك حكايات الشتاء حينما يجتمعون حول النار لكي يتدفؤوا من

برد جبل شدا الأعلى القارس، أما حينما يأتي الصيف فيعتدل الجو؛ ولأن الأمطار صيفا وشتاء فإن الأشجار خضراء، والتلال والروابي مخضرة. لا يحسون بجمال هكذا لأنهم تعودوا على رؤيته. يشعرون به فقط حينما يطلّون على سهول تهامة الجرداء العارية. يطلون عليها من أعلى، فيشعرون أنهم في الفضاء. ذواتهم مركز ذواتهم، تحرروا من روابط السهول. في هذه الأمكنة التي تسمى الصُدُر يشعرون بحضور جبلهم أمام الزمن، بمقاومته وتحديه، في مقابل السهول الهشة والخفيفة.

هذا في النهار أما في الليل؛ حيث تتوهج السماء بالنجوم ينكشف الجبل الجبار ويحيا من جديد؛ حيث لا هدوء ولا سكون ولا فراغ؛ لأن آلاف الكائنات تكون قد خرجت، ومئات الأصوات تكون قد سُمعت. ليست حياة النهار كحياة الليل. في الليل كل كائن ومخلوق حر في أن يخرج إن كان شجاعا. أما في النهار فلا يخرج سوى الإنسان، وحفنة من الكائنات التي أذن لها في أن تخرج.

خلال السنين عرفوا المرض والحروب والأحداث النادرة كالجفاف والسيول. يموت من يموت ويحيا من يحيا. وتستأنف الحياة؛ لأن المتاعب والمصائب لا تدوم أبد الدهر، مثلما هي الأفراح لا تدوم. تغيب الأحداث في غياهب النسيان، وتتجدد الحياة، ليبدؤوا يحاولون فهم القدر الغامض.

كانوا على علم بما يحدث من حولهم. في أوقات الفراغ يحمل كل واحد منهم مذياعا. يحكي له المذياع ما يحدث في العالم

بأسره، ما يحدث يصل إليهم بواسطة أصوات ثابتة تقريبا من عواصم عربية كالقاهرة وعدن وصنعاء وجيبوتي. يكلمه أحمد بن بيلا عن التحرير، ويخاطبه جمال عبد الناصر عن القومية. لم يكونوا يفهمون التحرر ولا القومية، لكن هذا الذي لا يفهم يبدو مقنعا إذ كانوا يعتقدون أن القضايا الكبيرة غامضة لا يفهمونها.

إنني أروي هذه الحكاية كما هي متداولة الآن. فقد سمى فاضل الخليعي حماره «الحساوي» الذي أحبه كما لا يحب حيوانا آخر، سماه جمال عبد الناصر. دائما ما كان يقول له

- «انهق يا جمال فينهق».

يزعج صوته المتحلّقين على القهوة الشدوية؛ فينهره

«اسكت يا جمال» فيسكت.

أحبوا الثوار والزعماء، وما زالت الألقاب تشير إلى من أحبوهم من الرؤساء والزعماء. فأحمد الذي يولد لرجل اسمه حسن يلقبونه (البكر)، وأحمد يلقب بـ(بن بيلا) وعبدالله يلقب بـ (السلال).

إضافة إلى القهوة الشدوية، مثل الغذاء مؤشرا على مستوى معيشتهم؛ وعبّر ذوقهم عن الفروق الاجتماعية بين العائلات الغنية والفقيرة، سواء بالمبالغة في استهلاك بعض الفواكه التي ترمز إلى الهيمنة كالرمان، أوالأطعمة التي تكثر فيها اللحوم. كان اللحم من مميزات مطابخ الأسر الثرية، وعلى العكس كانت مطابخ العائلات الأدنى تفتقر إلى ذلك. كان المزارع المغمور يكابد وهو يطور طرقا لكي يحيي الأرض، وفي فضاء يبدو كما لو أنه لا يتحرك.

لم يكن زمن الفلاح الشدوي يتطابق مع زمن المسجد، لكن بعد أن جاء المدِّينة، الاسم الذي أطلقوه على الوهابيين القادمين من الشرق قسموا الزمن إلى خمسة أقسام. وقّتوا النهار بالفجر، والظهر، والعصر؛ تتخلله فترات العمل في الزراعة أو الرعي، وقسموا توقيت الليل إلى قسمين المغرب والعشاء، وقد فرض هذا التقسيم الزمني الانتظامَ على عمل الراعي والفلاح.

قبل أن يصل المُدَيّنة؛ كان الله والشيطان متوقفين عن أن يتدخلا في مسار الأشياء في جبل شدا الأعلى. لم يكونا يتدخلان في الحياة اليومية. بعد أن جاء هؤلاء أكدوا أن جرائم إبليس وشركائه من الإنس تؤكد وجود الشيطان، وأن لا ملجأ ولا منجى منه إلا باللجوء إلى الله.

جاءت أفكار المدِّينة على عكس ما فكروا فيه؛ رفعوا مصالح أهالي جبل شدا الأعلى فتراكمت ملكيات الأفراد الخاصة، واستولى الغني على أراضي الفقير. رفعوا احترام الأخلاق فأوجد ذلك علاقات خارج الزواج لم تكن موجودة من قبل، مجدوا قوامة الرجل فشاعت اللامساواة. قالوا: المؤمنون أخوة فكثر النم والشتم والاختلاف، وأكدوا أن الدين أكثر القوانين إنسانية فكثر الظلم، وتكاثر الجبروت، وأُكلت حقوق الفقراء والمساكين وظلم خلق كثير.

إن القسوة التي عاش فيها سكان الجبل والإذلال الذي عاشوه على امتداد سبعة العقود الأخيرة من الحكم السعودي، لم تكن كافية لإقناع الحكومة بجدوى حصولهم على الخدمات، فقررت ترحيلهم.

رفضوا فتركتهم. عانوا أكثر فهجروا الجبل إلى المخواة، وأودية أخرى مجاورة.

قبل سنوات قليلة شاع أن أحد الأمراء يريد أن يضم جبل شدا الأعلى إلى أملاكه. تساءل أهل الجبل لِمَ يفعل ذلك؟ وفيما هم يتساءلون لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء؛ شعروا بأنهم غير مفيدين، ليسوا في محلهم، ولا يستحقون أن يعيشوا في جبل كجبل شدا الأعلى، ولو طلب أحد منهم أن يفصحوا عما شعروا به لرأوا أنفسهم كائنات بلا هيئة تهيم في مساحات بلا مساحة.

لم تكن لغتهم تسعفهم لكي يتحدثوا عن إقطاع شرع ينمو في تلك الناحية من الجزيرة العربية ينهب أملاك الناس ويشاركهم أرزاقهم، ولا عن إرادة سلطة أميرية مطلقة تدفع حتى الأمراء الأكثر ضبطا للنفس إلى أن يفقدوا توازنهم الشخصي، وأن يخلقوا حالة من الاستبداد الشخصي، وحتى لو أسعفتهم فإن خوفهم يمنعهم من أن يقولوا ذلك.

إن الحظ هو قوة الله الخارجية التي يرسلها إلى الناس؛ إذ جاء الفرج على يد امرأة؛ باحثة بريطانية مستقلة تُسمى شيلا كولينيت قضت ما يقارب من ٢٦ سنة في دراسة النباتات في شبه الجزيرة العربية، ومن ضمنها نباتات جبل شدا الأعلى. دعمتها هيئة الحياة الفطرية والرئاسة العامة للأرصاد والأحوال الجوية، وحدائق كيو جاردن البريطانية الشهيرة.

ما زلت أتذكرها وهي منهمكة تلاحظ نباتات الجبل. تتناول سيجارة ثم تشعلها لتسحب منها نفسا ثم تعود مجددا. تلاحظ وتراجع وتصنف وتفرز المعلومات، تفسر نباتات غير مفهومة بنباتات أخرى مفهومة، وفيما هي تعمل لم تكن تعرف أنها ستساعد أهالي الجبل على أن يستعيدوا جبلهم حيث سيصبح فيما بعد محمية من محميات الحياة الفطرية بإرادة ملكية.

ـ ٣ ـ

حيث أقف، النظرة لا متناهية من أعلى التل الذي يعلو بيتنا. في الخلفية البعيدة جدا، هنالك قارة إفريقيا، والأفق، والبحر الأحمر، دونها السهول الواسعة التي اجتازها الإنسان الأول الذي وصل إلى جبل شدا الأعلى. يُحكى أنه خاف من نباح الكلاب في السهول، فصعد إلى الجبل.

بدت لي الحكاية نادرة، مجرد حكاية طريفة يُغاظ بها أهالي الجبل. لا يقول الناس إنهم لا يعرفون، إنما يختلقون الحكايات لكي يعرفوا. حين أعيد النظر الآن أعتقد أن ما حكوه كان على سبيل التندر، وإلا ما فائدة أن ينجو إنسان من كلب ينبح، لكي يعيش مع ذئب يعوي.

كنت أراقب السهل وأقول

ـ يا إلهي! إنه سهل مرعب. سهل الألم، وقد عبره وحيدا.

هناك، أقرب من السهول التي كنت أراها، ومن تلك الناحية من التل، يقود الانحدار إلى قرى وادي نيرا والقفرة وناوان. أما هنا، فيوجد بقايا حديقة، اسميها حديقة لأنني نسيت ما كنا نطلقه عليها، مساحة صغيرة كانت تزرع فيها أمي الريحان والبرك والحناء، وتحيطها

بسياج خشبي تهالك من قدم الزمن. وفي مكان آخر قريب منها توجد بقايا خم الدجاج، وفي الجهة المقابلة للخم يقع (المقْطِر)، ما إن رأيت بقاياه حتى استيقظت في ذاكرتي رائحة القطران والقار.

في طفولتي شكل ركضي بين الحديقة والخم والمقطر حريتي الأولى. لم أشعر فيما بعد بحماس مماثل، ولا بشعور يشبه شعوري آنذاك بالحرية والطلاقة والصفاء، بتلك المرحلة العفوية من حياتي التي ليست في حاجة إلى شرح. لو أنني لم أرحل، لو أنني بقيت هنا لكي أدرك وأشعر، لكي أتعلم الحديث مع الكائنات الحية التي تشاركني وحدتي الآن في غياب أي همسة بشر.

الكائنات الحية التي تدب أو تزحف أو تطير، والترفيه السادي لطفل، والقسوة المجانية التي كنت أمارسها حينما أقطع أرجل خنفساء، أو أسحق نملة، أو أرجم عصفورا. وجدت صعوبة في أن أتذكر ما كان يتْبع أفعالي تلك تجاه كائنات الجبل الأولى في مواجهتنا نحن البشر الطارئين عليه. أتكون هجرة الناس مصيرا محتوما لأنهم استعمروا الجبل بدون حق؟ ربما، فقد شعرت بأن الناس مغتصبون، ومستعمرون، وما كان من حقهم إن يعيشوا هنا ليزعجوا تلك الكائنات.

أفكر الآن في أن عنف الطبيعة المستتر والمخيف كان رد فعل لما فعلوه، العنف الذي يعرفه أهالي الجبل، وذاقوا قسوته: هجمات البعوض، ولسعات النحل، ولدغات العقرب، وهجمات الذئاب والفهود. الرياح والعواصف، والبرق الذي ابتكر الأهالي لأجله

الممنوعات، فلا يجب أن نشير نحن الأطفال بأصابعنا، ولا أن نقف على الباب، ولا أن نكشف رؤوسنا، وإذا ما زاد البرق والرعد يضعون قطعة حديد على الباب، أما الأعمق في كل ما ابتكروه فهو طلاء وجوهنا بالحِمَم.

أي جو للفصول الأربعة شعرت به آنذاك؟! لم أعد أذكر الكثير. فقط أتذكر البرد، والكيفية التي ألف بها نفسي. لم أكن أنام مباشرة، وأكثر من مرة أفزعني ظلي الضخم على الجدار، ومع تنامي الوقت طورت لنفسي مخبأ سريا: ألف جسدي لكي أشعر بالدفء والأمان، أترك ممرا ضيقا أراقب منه شعلة الفانوس الرقيقة، وهي تناضل مثلي من أجل وجودها.

لم يكن بيتنا ينطوي على أي أسرار، كل شيء فيه مكرر وشائع وعادي، قبل أن أنام اعتدت على رؤية أمي تقوم ببعض التفاصيل: تتفقد البقرة. تقلب دلة القهوة، الفناجين، براد الشاي، وطاسة اللبن، تخفض ضوء الفانوس، تسألني ما إذا كنت أشعر بالبول، ثم تتمدد لكي تنام.

حينما أستيقظ يثير انتباهي أن جدتي تصلي وتتكلم معي، أو تهش الدجاج. بعكس ما تعلمته في المدرسة،لم تكن صلاة جدتي تنطوي على أية أسرار. أغسل وجهي من بقية ماء وضعته أمي للدجاج، تنتهي جدتي من صلاتها لتشق طريقها، فيتفرق الدجاج المنكمش على نفسه، ينفض أجنحته ويقأقئ فيقفز قلبي ويعتريني رعدة تتسرب

عبر عمودي الفقري، وحينما نجتمع حول قهوة البن الشدوي لم يكن من المناسب عند أمي أن أتكلم أو أسأل، علي أن أستمع وأتعلم.

الأحاديث التي تدور أثناء شرب القهوة تحددها الطبيعة، فإذا كانت السماء ملبدة بالغيوم، تتحدث جدتي عن السيول التي اجتاحت القرية في أزمنة متفاوتة، هوايتها تعداد أسماء المزارع التي اقتلعها السيل، لأن الله غاضب من عدم إخراج الزكاة، أما إذا كانت السماء صافية فتتحدث عن المزارع التي جفت واقتلعتها الرياح، لأن الله أيضاً غاضب، لا فرق عندها بين أن يغضب الله على مزرعة، أو يغضب على مزرعة، حينما يغضب يرسل السيول أو يحرمها منها.

ومع ذلك فالله رحيم في نظر جدتي، لكن البشر يرغمونه على أن يغضب، وإذا غضب فإن غضبه كلي، الكون كله يتضافر ليسمح له بجزاء من لا يخرج الزكاة: السماء، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، وحتى الحشرات والطيور التي تحارب من أجل سد رمقها، ويحاربونها حتى لا تبيد الحب، وحينما تصل إلى هنا تتعوذ من الشيطان وتقول:

ـ إذا كان الله رحيما، فلماذا يسمح بوجود البشر الذين يخرجونه عن صفته الأساسية.

مثل معظم نساء الجبل لأمي حاجبان مقوسان، وهدبان منسدلان على خدين نافرين، وشفتان مكتنزتان. حلاوة الجسد المهجور لأن أبي ميت، واليدان المركونتان أحيانا على نهدين مفعمين بالحياة.

الشفتان والورك والصدر والنَّفَس. تأكل كثيراً، وتمشي بخطى واثقة، ولها قدرة على إنجاب الأطفال. تضم جدائل شعرها، وتعقفها إلى أعلى، وتحب أن تعصب رأسها بمعصب أحمر أو أخضر. لو أنني ولدتُ قبل سبعة عقود لكان من السهل أن أتعرف على جدتي في صفات أمي، أما وأني ولدت وهي عجوز فحالها ليس كذلك، إذ لم يتبق منها سوى ثنيات وتجاعيد كما لو كانت قربة فارغة من الماء والهواء.

أتت هذه الصفات الآن، وأنا أكتب، أما حين كنت طفلا، فقد كانت أمي بلا صفات. لم تكن قبيحة لكنها لم تكن جميلة، لم أنظر إليها في إطار القبح والجمال كما لو كانت امرأة بلا صفات، لقد كان لها سحرها الخاص وهي تدين بسحرها إلى كونها أمي، ولأنها كذلك فقد نشأ بيني وبينها منطقة محايدة خارج إطار الصفات، هي أمي كما هي وانتهى الأمر.

لم تكن تتحدث عن أبي. ما استطعت معرفته هو ما شعرت به وهي تبوح به في تنهيدة

ـ كما لو كنت هو، الخالق الناطق.

لم يكن حولي سوى النساء، اللاتي يحلو لجدتي أن تحدثني عنهن. في الواقع كان النساء الشدويات يمارسن بطولة صامتة، من غير أن يكون لهن ذكر لا في الشعر الشعبي ولا في النثر. لا يحلو حديث جدتي إلا إذا فتحت سيرة النساء الشدويات.

كانت جدتي تحكي وأنا أنصت، وكما في المسرح أعيش ما تحكيه، بينما تنتظرني في الخارج تفاصيل طفولتي. ما إن تتوقف عن الحكي، ومثلما يحدث أيضاً في المسرح يتناهى إلى سمعي صوت القرية وقد استيقظ آخر طفل فيها. تنهي حكاياتها لأعود إلى الحياة، ولتعود الحياة إلى ما كانت عليه. الآن أفكر أن ما تحكيه جدتي هو أسلوب اعترافها. إن لكل واحد منا أسلوبه في أن يعترف، وهو اعتراف يشعر منه بخلاصه، واعتقد أن جدتي كانت تفعل ذلك.

ـ ٤ ـ

يتغير العالم لكن عالمي تغير بصورة أسرع. لقد تهدم بيتنا الذي بُني فوق رابية خضراء تظهر من شرفته القرية. بيت كان قرية أكثر مما هو بيت، إذ هناك على الدوام وفود من النساء واردات أو صادرات من العين الوحيدة في القرية. ما إن يصلن حتى تعد جدتي لهن القهوة، ثم يشرعن في الحديث: يحزن، يعبسن، يقطبن، ترى عيونهن غرقى في الألم أو الفرح.

لا بد لأي أحد أن يكسب مرة ويخسر أخرى. هذه الحياة؛ لكن نساء القرية كما أفكر الآن خاسرات على الدوام. لم يكن أمامهن لكي يعشن إلا أن يتناقلن الأخبار، ويتبادلن الأسرار التي تجعل من حياتهن معنى، ربما لم يكن المعنى واضحا لهن، وربما لم يكن ذلك يهمّهن، فالمهم عندهن أن يعشن مطيعات على أمل ألا يغضب رجالهن، وغير واثقات من أن يكونوا قد أرضوهم فعلا.

آنذاك شكلت بؤرة اهتمامهن: ينظرن إلي لحظات، تستمر ثانية، ربما دقيقة، تأتي نظراتهن إلي، وتذهب سريعا. الآن أفكر. ترى! إلام ينظرن؟ هل كن ينظرن إلي فعلا؟ لا أدري. ربما كن ينظرن إلى خيالهن البعيد، إلى وجوه يعرفنها أو شاهدنها في الأحلام، ربما لم

يكن ينظرن إلى شيء، وأن هذا اللاشيء هو الذي يجعل نظراتهن تبدو وادعة.

فيما أنا أراقبهن، وقبل أن يسترحن؛ كن يحملن حِلال الماء من غير أن يلمسنها؟. أتساءل الآن أي توازن كن يحتفظن به؟ توازن يبدو معقدا لطفل يتساءل عن كيفية تفاهم أجسادهن مع الماء الذي يترقرق فوق رؤوسهن، عن التعلق العميق بين أجسادهن وبين ما تحمله، عن الرهافة التي تتجاوز التعقيدات التي تعرفها. عن هُن وهُن يتمتعن بذلك التوازن الرهيف.

إلى هذه اللحظة ما زلت أتذكر رَحْمَة؛ المرأة التي تستولي على انتباهي أكثر من غيرها. تنزل حَلتها الأجد والأنظف، تنزلها وهي تنحني بتوازن محسوب؛ كي لا تهرق الماء، فيظهر لي أصل ثدييها الطليقين من أي حمالات تحت ثوبها الأحمر، ثم تغرف من الحلة بكفيها، وتغسل وجهها، والباقي ترشرش به رقبتها، فيتألق وجهها باللذعة التي تحدثها برودة الماء.

لحظات ثم تشرع في تنشيف وجهها وعنقها بشيلتها، وحينما تصل إلى قعر ثدييها، أَشُم رائحة الحليب والعرق، وتنمو في داخلي رغبة في أن أتقدم إليها. وما كان لي أن أهدئ رغبتي في امتلاكها إلا بأن أمتلئ بها، وأن ألتهمها حتى آخر ذرة من جسدها وروحها.

إنني أكتب هذه التفاصيل؛ لأن ياسمين التي سأتحدث عنها فيما بعد تشبهها. الفتاة التي عشقتها في شرق إفريقيا. رأيتهما معا بعين الخيال، والمَلَكة التي تقيم فيها الأرواح بعد أن تذهب الأجساد حياة ياسمين وحياة رحمة بعد موتهما، حينما غدتا نصا، وحكاية تروى.

عين الخيال، عيناي التي رأيتهما بهما، عينان فُتحتا على شيء مباشر وصريح فيما يتعلق بهما، شيء شديد الشفافية. رحمة وياسمين اللتان تفتقدان إلى ما يجعلهما تخدعان نفسيها؛ حتى أنهما ترغبان في أن أتستمر في النظر إليهما، وأن أستغرق في تأثيرهما الكلي الذي يأتي من وجودهما. وجود غير مدرك؛ ربما لأنهما تجهلان وجوديهما، وتجهلان معه تأثيرهما الذي تمارسانه علي، أنا الطفل آنذاك، والبالغ حينما رحلت إلى شرق إفريقيا.

آنذاك. وأنا طفل؛ لم أكن أشك في أن رحمة تشعر بانجذابي إليها. كيف عرفت؟ ربما لأن في الأطفال حاسة لا تسمح سوى بدخول ذلك، وربما لأن المرأة، ومنذ اللحظة الأولى يمكنها أن تشعر من هو الطفل؟ من هو الرجل. إن لم تشعر فهي تحدس بما يمكن أن يشكلاه عندها.

من بقايا تلك الجلسات، سأظل إلى الأبد أصغي بأكبر قدر من الوضوح إلى ما قالته عني. في ضحى أحد الأيام، توقّدت كما لو كانت عود ثقاب، راقبتها كاتما أنفاسي، ممتلئاً بذلك الذي لم أكن أعرف كنهه. فقط أدخل وأخرج من غير أي رقابة كما لو كنت أحلم.

قالت لجدتي

ـ هذا الولد مصيبة.

كررت رحمة مقولتها لأمي، التي نظرت بدورها إلي بمودة عبر عنها وجهها المبتسم، وفي غفلة من الجميع نظرت إلي رحمة وغمزتْ لي بعينها اليسرى.

كان لرحمة من العمر ما يجعلها في عمر أمي. بدأت حبات الشيب تغزو شعرها المضموم من الجانبين إلى جديلتين يظهر جزءاهما الأعلى منهما إلى جانب خديها مع البرك والكادي والريحان، ومعكوفتان من مقدمتهما إلى أعلى كما هي عادة نساء القرية في تسريح شعورهن، تميل إلى أن تكون نحيلة، متزوجة من رجل من القرية لا يمكث فيها إلا أياما قليلة؛ لأنه يحب السفر. لديها ولد وبنت. الولد في مثل عمري ودائما ما كنا نلعب معا فيما لو جاءت به.

غير أن جمالها جمال مستور لا يراه أحد ولا يشعر به إلا من اخترق أعماقها، حافظ جسمها على استدارته كما لو كانت في العشرين من عمرها. خطوتها هي خطوتها حينما كانت شابة، ودمها حار مثلما كان آنذاك، يجري في عروقها مثلما كان يجري وهي شابة، يجري ليمنحها الرغبة في أن تعيش، وتستمتع، وتلبس، وتداعب، وتموت لتعود من جديد إلى الحياة.

إذا ما طلب منها النساء أن ترقص تتفانى في الرقص. لم تكن ترقص لكي تلعب أو تلهو مثلما يفعل النساء فيما لو شاركن معها. إنما لتعبر عن إيقاع الحياة، رقص كفانوس يضيء ساحة لا شعورها؛ حيث حياتها المعتمة. يُنقّي ويكرس جمالها. تعلن حركاتها وإيماءاتها عن أفكارها التي تخفيها عميقا، ولا تستطيع أن تعبر عنها بالكلمات. تنسجم في الرقص حتى تنسى كل شيء، وتستعمل جسدها لكي تفهمه وتتوحد معه. تبدأ رقصها بهدوء، لكنه هدوء جذل، ثم تتقدم

إلى الأمام فتطير شيلتها إلى الخلف كما لو كانت ترسم مشهدا لنسيم الضحى.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي طلبت منها جدتي أن ترقص، فطلبت من الموجودات أن يدخلن إلى البيت. وقفت في مقابل أشعة الشمس، بدأت ترقص ويداها تتراقص فوق رأسها، انعكست الشمس على معصبها الأصفر فبدا كما لو أن لهبا يحيط بها، دلفت من الباب فراشه مخططة باللونين الأصفر والأسود. في وسط البيت رقص رحمة كاللهب وأضافت الفراشة جمالا آخر.

فيما هي ترقص أُفلتت من الأسر، وصُب فيها مزيج من الشهوة والقسوة، ورُدت إلى حالة الحيوان الأولى قبل أن يتلوث بالثقافة، واستوت خلطة مميزة من الألم المُختبر في صورة فرح يعتصر الصرخات من أعماق صدرها. صرخات رعب موجع، ومتشوق إلى شيء فقدنه بلا رجعه.

ترقص في مكانها، بينما الفراشة تدور وتدور حولها ثم راحا يرقصان معا. تضاءل رقصها بالتدريج حتى استقرت واقفة، وقفت الفراشة على رأسها برهة، ثم غادرت من الباب الذي دلفت منه.

إذا لم تكن رحمة ترقص، أو تتحدث؛ فالعادة أن تنظر إلى فنجان القهوة الذي أمامها، وتبدو كما لو أنها في تأمل يعزلها عن النساء. لم تكن تحرك أي شيء سوى رفع الفنجان إلى شفتيها، ثم تعيده وسرعان ما تعود إلى ما كانت عليه.

بعد الفنجانين الرابع أو الخامس تعود إلى حيوتها.

تنظر إلي وتقول

ـ أتخجل من أن نرى خصيتيك؟.

ولأنني كنت أخجل، تعود إلى القول

ـ لا يوجد معك خصية؟. أعترف.

كلما خجلت أكثر تمادت أكثر

ـ هيا قل معي خصية واحدة.

لم أكن أعرف بم أجيب

ـ هيا قل: ليست خصية واحدة. خصيتان لكنهما صغيرتان.

ثم ينفجر النساء بالضحك

بعد أن غدوت وحيدا في هذا العالم، سأحاول أن أتذكر تلك الأيام والليالي.

ذات صبح رأيتها عارية، التف رداؤها لينسحب إلى ما فوق نهديها. تغط في نوم عميق، وعلى وجهها ابتسامة، يلمع العرق على جبهتها، وشفتاها تبدو رطبتين. كيف عرفت أنني أنظر إليها! لتسحب رداءها إلى الأسفل لتبدو محتشمة. الخيال والبلاغة والاستعارة ضرورة قصوى الآن، لكنني لست موهوبا بها، يمكن أن أحاور، لكن أن أنجح في صوغ جملة بليغة تجسد حالة رحمة آنذاك، أن أخلق عنها استعارة فذلك ما لا أستطيع فعله. كل ما أتذكره الآن أنني كنت آنذاك أفكر، من غير أن أعرف فيم أفكر، ولم أفكر.

ـ تعال.

هل قالت ذلك؟! لم أر شفتيها تتحركان، ربما لأن الكلمة (تعال) أتت من قلبها. ولأنها أتت من هناك، لم يكن ممكنا إلا أن أفهمها من عينيها.

في ذلك اليوم حممتني، وداعبت جسدي بأناملها. اتصال رقيق جعلني أرتجف. همست في أذني. تملتني بنظرات لا أستطيع الآن إلا أن أقول: نظرات تتحرق رغبة. مسحت ذراعي، وصدري، وفخذي، وقدرت عنفوان طفولتي، ومدى رغبتي الفطرية، وداعبت بنهديها النافرين يدي.

ـ لا تخف.

حممتني، وأجلستني. ذهبت ثم عادت عارية.

أخذت يدي وسحبتها من أعلى إلى أدنى.

ـ هذا شعري، وهذا وجهي، وهذان خداي، وهاتان شفتاي، وهذا لساني، وهذه رقبتي، وهذان نهداي، وهاتان حلمتاي، وهذه سرتي.. سكتت ثم قالت

ـ وهذا ملك الرجال.

آنذاك لم أكن أعرف ما أقول. أحاول العثور على الكلمات لأعبر عما أشعر به لكن بلا جدوى. لو أنها هنا الآن لقلت

ـ أنا من الرجال.

- ٥ -

إنني أفكر الآن في إجابة عن سؤال طالما أرقني: أي الناس أشد حزنا؛ أهو ذلك الذي يغني أم ذلك الذي يستمع؟ أفكر لأنني طالما استمتعت إلى جدتي وهي تغني. تطل من طرف باحتها التي تشرف على مزارع القرية، ثم تغني الغناء الذي يجذب أمي ويثير شجنها.

فيما أمي تستمع إلى الغناء تسند رأسها على راحة يده؛ لتصغي إلى أصوات من العالم الآخر، لتصل بتفكيرها إلى مناطق فوق الحس، لكنها تظل معلقة بسطح الأرض. تجمع لحظاتها الماضية فتشعر أنها تولد من عاطفة حنين غامضة، تجاهد لكي تتحرر منها لكنها تجد اللحظات تروح وتجيء بينما عاطفتها مثلما هي. تصمت جدتي فتميز أمي في صمتها اللغة التي تفهمها عبر قلبها، تدرك بأن في هذا العالم شخصين أحدهما ينتظر الآخر. لكن متى يلتقيان؟ التقيا هي وأبي، لكنهما افترقا؛ لأن الموت يكره أن يرى شخصين سعيدين.

المكان المفضل لجلوس أمي هو أعلى صخرة قرب بئر قديمة وجافة تقسم طريق المزارع إلى يمين ويسار. من يريد الذهاب إلى مزرعتنا سيختار الممر الأيمن؛ لأنه الممر الأوجه لتحاشي دروب

أراض زراعية أخرى. لم تكن مزرعتنا كبيرة؛ فالظروف التي مرت بعائلتي جعلت المزرعة تنمو إلى الداخل، لكنها تضم تشكيلة متنوعة من الأشجار كالبرتقال والتفاح والرمان.

بعد البئر يمر الطريق المؤدي إليها عبر أراض محمية. الطريق ليس غابة مزدحمة بالأغصان، لكنه في الغالب يكون معشبا في الأيام الممطرة. ولو قُدر لأحد آنذاك أن يطل على المكان من أعلى؛ لرأى شبكة معقدة من الدروب، ولكي يصل إلى مزرعة معينة؛ عليه أن يرفع رأسه ليرى الاتجاه، لأن الدروب متعددة. إذا لم يرفع رأسه، فقد يختار دربا يفضي به إلى مزرعة غيرها.

مثل كل مزرعة من مزارع جبل شدا الأعلى، تتبع المزرعة دربها الخاص، لكن في الأرض المحمية ذاتها. قد تبدو الدروب التي رسمتها الحيواناتُ متشابهة، غير أن هذا لا وجود له إلا عند الغريب الذي يطأ الجبل أول مرة، أما حيوانات الجبل ورجاله ونساؤه، فهم يعرفون بدقة أي درب يختارون؛ لكي يصلوا إلى المزرعة التي يريدون. التجربة تعلم حتى الحيوانات معنى أن تكون قد سارت على واحد من تلك الدروب، فأخطأت مكانها؛ لكي تحظى بنهرة، أو رجمة حصى.

يتوسط الدرب المؤدي إلى المزرعة بئر جافة، لا بد أنه حفر منذ قرون طويلة. في طفولتي لم يكن سهلا علي تمييزه عن الدرب، فقد تساقطت الحصى التي تحدد محيطه، ونبت على فوهته عشرات الشجيرات الصغيرة، التي جعلت الأمر أصعب؛ إذ يتحول إلى فخ

منصوب، وحينما تموت الشجيرات يكون الأمر أشبه بذاكرة باهتة وخربة قد أسقط فيها في أي لحظة.

شبح طفولتي هو هذا البئر، وقد اعتادت جدتي على أن تخوفني من الاقتراب منه، وتتحدث لي عن ظروف حفره، لا بد أنه حفر في ظروف قاسية، لأنها تتحدث من خلال الرعب الذي تثيره وقائع عشرات الأموات، وأهوال الحفر التي تذكر لا بحفر بئر بل ببناء الأهرام.

ارتبط حفر البئر بسنوات عجاف مرت على جبل شدا الأعلى. آنذاك استشار الأهالي يمنيا ادعى علما بالكتاب. أي كتاب؟ تقول جدتي إنه «شمس المعارف» ويؤكد البرتاوي أنه «الجفر الجامع». المهم أن الرجل حدق في الأرض، ثم نكثها بقدمه اليمنى. راقب عروق الماء التي قال إنها تنبع من قمة مصلى إبراهيم، ثم جمع شظايا تجربة من هنا وبعض معلومات سمعها من هناك، وأدهش الجميع حينما شرع يعدد لهم أنواع الماء الزلال والصافي.

شرع الأهالي يحفرون، واستمروا يحفرون إلى ما لا نهاية، تعبوا لكنهم تلقوا انطباعات صغيرة التقطوها من تراب مبلل بالندى، هبطوا في الأرض كمن يهبط في ذاكرة جيولوجية: صخور بأشكال مختلفة، طبقات من التراب الأحمر والأسود، وأشياء أخرى وقفوا تجاهها مدهوشين.

من أول يوم كانوا يلتقون في الفجر، حينما تطل عليهم نجمة من أعلى فتشعرهم بأنهم ما زالوا أحياء في جبل عال يرزح فوق سطح

الأرض، يتحسسون أذرعتهم المفتولة. عضلاتهم مثل صخور ضخمة أخرجوها أثناء الحفر، وعروقهم متوترة تجري مثل وشل من أوشال الجبل التي يرتفع ماؤها ثم ينخفض، تغيب في منحدر ما ثم تظهر مرة أخرى. شعر صدورهم كثيف ومغطى بالغبار، ينتظرون بعضهم بعضاً وهم يدخنون في ملابسهم الداخلية.

كل يوم يغنون أغنية مفضلة لشخص حفر معهم البئر، لكنه مضى وتركهم للزمن، يشرع أحدهم بالغناء وسرعان ما يتبعونه كسرب طيور مهاجرة، يلملمون أجزاء حياته في ذاكراتهم ويربطونها في غناء جماعي يوحدهم، ويرصهم في مواجهة الطبيعة، يذوبون أنفسهم ويتذكرون الشخص الذي مات في هيئات شتى.

لم يكونوا يعرفون ما الذي حطم رغبتهم في أن يحصلوا على الماء، ولا الكائن الذي يقف في مواجهتهم، لا شك في أنهم يدركون أنه شيء ما، يدركونه من أعماقهم، لكنهم لا يستطيعون التعبير عنه، يشعرون به أثناء الغناء، لكن إذا صمتوا فالأمر أشبه بفراغ في ذاكراتهم، فراغ يشبه الفراغ الذي يتركه إنسان مات بعد أن حفر معهم.

ما إن يتجمعوا حتى يتراصوا في دائرة غير مكتملة، أي متعة نقية!! تلك المتعة الموجودة في نصف دائرة تسمى العرضة!! أي جمال وشجاعة ونبل!! يدخل شاعرهم كفارس رافعا يده كأنما يقول لذلك الكائن: أنا هنا، بينما ينصت البقية، وسرعان ما يعيدون آخر بيت من قصيدته.

تتجاوب أجسادهم مع مخيلتهم في رقصة هي رقصة الجمال والنبل، تعبير عن فرح الولادة والأعراس، عن العبور من الطفولة إلى الرجولة، عن تفتح الأرض وعن بذور زرعوها كي يطعموا أفواها مفتوحة، استجابة جسدية للطبيعة، وشعور برهافتها وعمقها وقسوتها.

من غير أن يدخلوا في تفاصيل معنى ما يمارسونه، ومن غير يشرعوا في تأويله جعل الأهالي العرضة جزءا من حياة جبل مهيب، إنهم ينتمون إلى جبل شدا الأعلى الذي كان مسرحا للعرضة، الجبل الذي كان (الزير) إلى وقت قريب يُسمع في كل جزء منه: من قمته التي تحرس القرى، من المراعي ومن سطوح التلال، من البيوت وأبواب العبادة في مصلى إبراهيم.

لا يمكن لمن لم يجرب العرضة أن يتخيل متعتها، حيث كل شيء متحد. حينما يجتمعون لكي يرقصوا «لا يكون هناك أشياء مثل (أنا) و(أنت) و(هو). متعة تشبه نشوة صوفية عميقة يتلاشى فيها الموت ولا يعود موجودا. إنهم يموتون فرادى، واحدا بعد الآخر، لكنهم في العرضة خالدون، يمدون أذرعتهم بعد الكثير من الجوع والظمأ والعصيان ويعانقون أبويهم الأرض والسماء. إن أجمل قصائد الغزل والفخر قيلت أثناء جلوسهم لكي يرتاحوا.

عبر أجيال عمل في هذا البئر العديد من العائلات الأخرى التي انقرضت أو تكاد. لقد كابدوا وهم يحفرون، كابدوا اللهَ والأقدارَ

والطبيعةَ، كلما مات أحدهم يقفون على البئر، يتذكرون أحاديث الماضي كأنهم سمعوها منذ لحظات، يسندون رؤوسهم ويفكرون في وجوه في الطرف الآخر من العالم. يغنون لكي يموهوا على ما هم فيه.

شاعر ما على ما أتذكر قال:

«أيغني الإنسان في الأيام القاتمة الصعبة؟

أيضاً في الأيام القاتمة الصعبة يغني الناس. . .

.يغنون عن الأيام القاتمة الصعبة

ـ ٦ ـ

قد نجلس لنكتب شيئاً فنكتب غيره. الاستطراد الذي قادني إليه خيط أفكاري. تركته لأنني وجدت فيها ما سيزيد من فهم الحالة التي أعيشها.

ما أردت قوله هنا هو أنني عدت إلى جبل شدا الأعلى بناء على نصيحة استشاريتي النفسية.

قالت لي:

ـ من أجل أن تستقر حياتك أنصحك بالكتابة. ستساعدك على أن تتوازن. عد إلى الماضي، إلى مكانك الأول؛ لتكتشف ما جرى لك. أزح الكوابيس من عالمك النفسي ليحل محلها الواقع.

ـ أستطيع أن أكتب الكثير من الهواجس التي تنتابني. قلتُ.

ـ إذا لم تتحرر بالكتابة، فستحتاج إلى علاج. قد يزعجك قولي، لكن يجب عليك أن تنتبه لنفسك. اكتب. يجب أن تكشف ذاتك. أن تعرفها. ليس ذلك يسيرا؛ فالمرضى عادة يكذبون، ليس لأنهم كذابون، إنما لأن الكذب جزء من آلية دفاع المرض عن نفسه.

ـ يصدر الكذب من المكان ذاته الذي يصدر منه الصدق.

ـ أيا كان الأمر. يجب أن تكتب؛ لتُظهر جانب الحقيقة، الجانب الذي له دلالته ومعناه. صُغ الوقائع ببساطة، وكما هي، من دون أن تنسق أو تنمق.

ـ ماذا بقي لكي لأكتبه؟ البشر كحالات نفسية لم يعد لهم مكان فيما يُكتَب، في ظل الأبحاث التي تفسر ما غمض من حياتهم النفسية.

ـ ما تحتاجه هو أن تسجل تجاربك. ليس شرطا أن تكون مرتبة، فأنت لا تدون تاريخيا إنما بالترتيب الذي تغدو فيه تجاربك ذات دلالة بالنسبة لك. يوجد عند كل إنسان تجربة مؤثرة يمكن أن نضع يدنا عليها نحن الأطباء إذا ما انتبهنا بما فيه الكفاية.

ـ قرأت في كتاب ما أن الحقيقة ليست ما يقال والمرء واع بها. تنزلق الحقيقة عن اللسان.

ـ هناك من قال إن الحقيقة خطأ غير مقصود. لكنني أعتقد أن الحقيقة ليست محددة الصفات. الحقيقة ذات السمات المحددة وهم، لكنه وهم نحتاجه لكي نعيش.

أضافت، وفي اعتقادي أنها تقتبس ما تقول

ـ في الحاضر أنت في المكان الصحيح، لكنك في الماضي كنت في المكان الخطأ. عليك أن تخلق انسجامك الروحي بين ذاك المكان وهذا الذي تعيش فيه. يتطلب منك الأمر أن تعود إلى مكانك الأول، وأن تراه رأي العين. يحتل المكان الأول أكبر مساحة من وجود البشر، ويؤدي دورا رئيسا في تكوينهم النفسي والروحي.

فتح الحوار معها طرقا جديدة للتفكير؛ لذلك عدت إلى جبل شدا الأعلى. أولا لأنه مكاني الأول، وثانيا لأنه المكان الوحيد والمناسب لأبقى وحدي. هناك يمكن أن أستطرد وأن تتداعى أفكاري.

ـ اكتب كل ما يرد على بالك. قالت لي. لا تدر بالا لقيمة أو أهمية أو تفاهة ما يرد. لا يوجد فكرة تطرأ عل بالك لا قيمة لها. نحّ جانبا الجوانب الأخلاقية والمنطقية والجمالية. تعرف! يبدو في الغالب أن التفكير التافه والرأي السخيف هما الأصعب في التعبير عنهما.

لكي أعود لم أكن أحتاج إلا إلى أن أستعد نفسيا، تطلب هذا مني أسبوعين أتأمل فيها ماضي، مجرد تفكير استغرقت فيه لأحضّر لرحلتي. أعرف من قراءاتي أن الذاكرة، لكي تعمل بشكل جيد، تحتاج إلى تمرين لا ينقطع؛ لأن الذكريات تختفي إذا لم تُستحضر مرة تلو مرة.

فيما أنا أتذكر؛ حضرت البقرات والثيران والأغنام، والفتيات اللاتي يسقن الضأن، والهواء الذي يتلاعب بثيابهن، ويلصقها بأجسادهن؛ عندئذ يتحول كل شيء إلى حياة. خوار الأبقار، وثغاء الأغنام، والنعاج التي تدفع نعاجا، والخراف التي تنطح خرافا، والصغار التي تبحث عن أمهاتها، والأخرى التي تقفز وتتحرش. الشمس التي تبتلع ظلال الأشجار. ونتف الغيوم التي تناثر فوق صفحة السماء الزرقاء. الضباب الذي يتراكم فوق قمة الجبل. مشاهد

تشي بأن الحياة جميلة لكنها قصيرة، وأن العالم واسع، بينما عالم الإنسان ضيق.

انتبهت إلى أن ما شعرت به هو الحنين، وكما أعرف فالحنين لا ينشط الذاكرة. الحنين يكتفي بنفسه، يكتفي بعاطفته؛ لذلك حملت أغراضي ورحلت.

ها أنا الآن في جبل شدا الأعلى. لأكتشف أن القارة خدعة بصرية؛ فهي لا تشبه امرأة متخلعة، ولا تشبه الرقم واحد، إنما تشبه امتدادا يضم في داخله رجلا ضخما عقد الغضب ملامحه. الفضاء الواسع المترامي. لا شيء سوى الفضاء الساكن كسكون الموت، لا شيء سوى هوة عميقة، سوى السماء بسحبها المتناثرة، تلك هي القمة الكائنة ولا شيء آخر سوى القمة ذاتها.

لقد قيل أن للروائح ذاكرة. بالفعل؛ ها أنا أتذكر رائحة القهوة الشدوية. ذلك المزيج المتآلف من اللون والطعم والرائحة الفواحة، الإشباع حقيقي للحواس الإنسانية، الحركات والإيقاعات التطريبية أثناء تحميص البن وهرسه في الهاون. البهجة والفرح التي تبعثها في نفوس المستمعين والشاربين، انتقال الإيقاعات التطريبية بين النساء حتى أصبحت تأتي من أعماقهن. الحركات والإيقاعات التطريبية غير المقسورة، البسيطة من غير أي تكلف، والمجردة من أي ارتباك.

يقال أن جبل شدا الأعلى قد تبدل بسبب تلك الحركات والإيقاعات التطريبية؛ فقد امتلأت البيوت بالهاونات وبسببها تحول وجع النساء إلى طاقة، وشاعت بينهن وبين الرجال لغة إيقاعية لها

قدرة على الإقناع أقوى من قدرة الشعور والإرادة. انتهكن بإيقاعات الهاون قواعد العلاقات وعَبَرْن بها إلى مناطق محرمة، وتلاعبن بها؛ لكي يخربن الأعراف التي نظمت من يَعْشَق ومن يُعْشَق، وأزلن بها صفاء الحب الرقيق بحيث لم يبق منه سوى ذلك التوق الجسدي البدائي.

في أزمنة الإيقاع تلك، وخلال وقت قصير امتلأت جبل شدا بالعابرين والمهاجرين الذين اعترفوا بأنهم استرشدوا بأصوات الإيقاعات التطريبية، هناك حيث وصلت إلى سهول تهامة صوتا لا يكاد يسمع، مقطعا من الروح، مسمعا من صوت دافئ، لا بل أقل من ذلك. شيء أقرب إلى الإحساس الداخلي يجر العابرين والمهاجرين إلى حيث لا يريدون الذهاب إلى حد أنهم لم يكونوا يعرفون أهم يسمعون حقا أم أنهم يحلمون بأنهم يسمعون وهم يسيرون.

صوت الإيقاعات والحركات الذي يتجلى ليضيع ثانية في هزيع الرياح والأمواج إلا أنه يعود فجأة كطيف، لحظة لا غير يسمع ثم يتلاشى صداه. إيقاعات لا توصف أو تصنف تتبعوا صداها بقلوبهم قبل آذانهم وكلما صعدوا الجبل أدركوا أنهم ليسوا هم الذين يطاردونها وإنما هي التي تجذبهم إليها، وفيما هم يتراخون في دواخلهم ويتركون أرواحهم تقودهم يتوقفون حيث تخرج الإيقاعات صافية من يد النساء الشدويات.

إنني أكتب وأتساءل: ماذا لو كان الرحم مكاننا الأول؟ كيف نعود

إليه؟ يبدو أن استشاريتي النفسية جانبها الصواب؛ فالمكان حالة داخلية وليس جغرافيا. تلك الحالة هي التي ننقلها معنا من مكان إلى مكان. نحن لا نغير أمكنتنا؛ لأننا نقيم في ذواتنا. الذات المجهولة مكان مجهول، لا يقيم فيها الإنسان إلا حينما يكتشفها؛ لذلك تركت المكان وعدت إلى ذاتي لأكتشفها.

لكي أمهد مسلكا عسيرا كهذا فكرت؛ وإن كان من الصعب أن أبرهن على ذلك، أن كل إنسان يولد، وفي ذات اللحظة يولد صديقه الافتراضي. يمكن أن يولد هذا الصديق في قارة بعيدة. قد يكون من عرق مختلف. لا يعرف أحدهما الآخر. يحدث أن يلتقيا؛ وإذا ما التقيا صارا صديقين.

لا أعرف ما إذا كنتم تتذكرون مقطعا من كنديد. في فندق بعيد يلتقي كنديد بالصدفة أربعة أو خمسة ملوك مخلوعين. كان كل واحد منهم يجهل أن الآخر ينتمي إلى أصول ملكية، وبعد أحداث شتى يكتشفون قرابتهم، ويتعجبون من لقائهم الغريب والعجيب.

ما حدث لي شبيه بذلك. أتذكر أرَس، إدريس، واشو عثمان، ياسمين، أفراح، ذات الشعر المجعد. كنا سبعة. ليس هنا إنما في مكان آخر. انفرط عقدنا إلى الأبد. لا يمكن أن أنساهم. ذكراهم تغفو، ولكن يقينا أنها هناك. في داخلي حيث الكهف العميق، حيث ينبع دائي من هناك.

هناك خطورة كلما اقتربت منهم، أو أنني أشعر بها. لقد فهمت.

فكرة تطفّلية وفضولية تفاجئني فأهرب وأقاوم. لا بد أنها آلية المرض التي يدافع بها عن نفسه.

إذا سأكتب برباطة جأش لكي أغلق ذلك البيت الخرب. الآن أنا أنصت إلى شخص يذكرني بنفسي؛ لأكتشف أفكارا ودوافع لم يسبق لي أن اعترفت بها أو أدركتها من قبل. أفكارا ودوافع ثانوية لكنها مفاجئه كشفت لي مقدار الصعوبة التي تواجه الإنسان ليعرف ذاته. مقدار الحاجة إلى أن يكون الإنسان شجاعا أخلاقيا لكي يتم ذلك ويحققه.

إنني أستغرق كثيراً من الوقت لكي أعرف أي كائن أن. لم أكتشف ذلك الذي يلامس قاع ذاكرتي. أظن أن اللحظة حانت لكي يطفو. أسمع وأعيش. يضيء فانوس ساحة لا شعوري، يضيئها ضد إرادتي. أنا الذي أقفز إلى عالم مجهول؛ حيث تتداعى أفكاري تداعيا حرا.

الكتاب الثاني

تـداعٍ

- ١ -

تخلق المطارات إحساسا بالأنثى. لو تخيلت مطار الملك عبدالعزيز الدولي على هيئة امرأة؛ فسأتخيلها متاعا منسيا. كومة لحم مهملة، شيئاً في غير محله، ثوبا يتدلى من حبل غسيل. امرأة تجلس، وتحاول أن تعثر على شيء تتلهى به. تشعر بالنقص، والقلق، وتترقب شيئاً ما.

غارقة في حزن، كل ما تعيشه رجع الصدى. استكن في أعماقها مفهوم خفي للخطيئة. نادمة ومذعورة، يشوشها الحياء والشعور بالذنب. تصرخ من غير صوت، وتسقط من غير أي ضجة.

فيما أنا أتأملهن فجّرن في خيالي هيئات أخرى؛ أجسادا محشورة في عبايات، تتغذى أجسادهن في الظلمة. شيء ما يشبه دنات الخمر. لو حاولت أن أرسم هيئة قريبة مما أريد التعبير عنه، لقلت: روّضتهن العباءات. وكما نعرف فإن ترويض كائن ما لا يفيد الكائن إنما يفيد مَنْ روّضه.

يحدث ذلك بدعوى التربية يُروّضن بالعباءات. سلوك فاجع يعني أن الرجال أخفقوا في أن يجعلوا من أنفسهم محبوبين. الترويض عكس التربية في الهدف وفي النتيجة. تدجين يُعَوّدن فيه على أن

ينفذن ما يُنتظر منهن تنفيذا طيعا وآليا. لأن المرأة المروّضة ليست امرأة أكثر نموا.

ولو تخيلت مطار جيبوتي الذي وصلت إليه يوم ٢٩ أغسطس ١٩٩٨ على هيئة امرأة؛ فسأتخيلها تمشي بثقة، مشيا يدل على النفوذ الذي تمتلكه. وردة تنثر العطر. عين ماء متفجرة. مغامرة، وتجربة تعاش. جمرة، وشعلة نار. مبلّلة. تنادي وتتوسل، كلماتها قديمة قدم الغواية نفسها.

لا تعقيدات رسمية. أنسبْت في مطار جيبوتي كما ينساب الماء في المجرى. دلفت من الأبواب، وتلاشيت من النوافذ. اختفيت وعدت. كنت كشبح. لو طُلب مني أن أفصح عما شعرت به لقلت: لا أعرف أي جزء مني ينتمي إلى الواقع، ولا أي جزء مني ينتمي إلى الحلم. أطفو. خفيف كريشة. شفاف يُرى دمي وهو يجري في عروقي. هادئ ومنتعش، واضح ورائق، مألوف ومعروف. قلت لنفسي: أين كان هذا كله قبل ساعة وربع الساعة؟! أيكون الوطن ثقيلا إلى ذلك الحد.

تابعت مسيرتي كما لو كنت بين الواقع والحلم، أبواب وأبواب، نوافذ ونوافذ. وقفت فجأة وغطيت وجهي بيدي لأحمي وجهي من صفعة، تبين لي أن ذلك وهم. لا صفعةً، لا ضرر من أن أكون خفيفا وطافيا. ضحكت من نفسي؛ فلا أحد هنا يتفحص الإنسان. لا أحد يتحرى هويته. لا ينشغل أحد بدخيلته أو نمط تفكيره. واستمريت في طفوي وأنا أتساءل: أكنت في وطن جدران سجنه من

الوهم؟! أبُني حولي جدار من الوهم من غير أن أشعر؟ ربما. وكلما قفزت من نجمة إلى نجمة، ومن سماء إلى سماء، نصفَ مستيقظ، ونصفَ حالم ابتعدت عن جدار الوهم.

في انتظار السيارات التي تقلهم؛ هناك أفواج من البشر الذين وصلوا تواً؛ نساء ورجال وأطفال. يبدو الأمر عاديا أن يقف النساء إلى جانب الرجال، لكن مَنْ وقفت إلى جانبها لم تكن امرأة عادية. هي قبلي، ومن الطبيعي أن تركب أولا. وهي تسير بدت غير مستعجلة، تشبه خطواتها غناء عصفور. سَعِد كل من رآها؛ تلفّتَ عجوز استعاد شبابه ليقول للآخرين: انظروا إلى جسدها.

ـ نعجة للذئب، تمشي بغنج. قال صوت. لا أعرف ما إذا كان ذلك وهما أم واقعا.

من الغريب أن أسماء معينة لا تخطر في بالك، لكن حين تخطر تعني لك الكثير. خطرت في بالي النعجة وخطر معها الذئب. طغا الذئب؛ لأنه الأختل والأخبث، الأخون والأجول. الأعتى والأعوى. الأظلم والأجرأ. الأجوع والأكسب. الأوقح والأنشط. الأجسر والأيقظ. الأعق والألأم. أظن أن الذئب شعر بخطمه وأنيابه، وداعب شعورُه صورتَه الشخصية، فالتمعت عيناه.

أحد ما قال لي اركب، وركبت من غير أن أفكر.

ـ أنا عوليد. قال

ـ أنا يحيى. قلت.

وسكتنا لكي يخيم الصمت.

لِمَ شعرت بالغرابة؟ من النسبة بين الواقع والعيش. ما أراه في الطريق التي سلكناها لا يندرج فيما أعرفه، وما يجري في الواقع ليس إطلاقا ما يجري في القلوب. الابتسامات والضحك والأغاني والرقص الإفريقيين. إن الناس لسعيدة هنا. قلت ذلك لنفسي، وأنا أفكر في بلاغة التوكيدات الثلاثة كما درسناها (الجملة الاسمية) و(اللام) و(إنّ) في قوله تعالى: ﴿ثم إنكم لميتون﴾.

ما علينا!! عود إلى بدء

ـ فندق مسلمين أو نصارى؟ سألني عوليد.

ـ فندق نصارى. قلت.

عبرنا حيا يتلوه حي. أيكون الأغنياء أكرم عند الله من الفقراء؟!أيكون فرعون أكرم عند الله من موسى؟. ذكر ذلك أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن أعرابي زعم ذلك.

ذكرى قراءة قديمة طفت؛ أو لأقل عبارة بزغت كما لو أنها أُمليت علي. لكن ما لا شك فيه أن مما رأيت في الطرق التي سلكناها، يمكن أن تطفو عبارات مثل هذه لتعبر عنه.

ـ هاهو الفندق. قال لي

أقل من عشر دقائق، ثم عدتُ إليه.

ـ فندق مسلمين. قلت له.

في الحقيقة لم يكن الدين همي الأول، وفيما لو تحدثت عن نعمي، فسيكون أعلاها عدم تفكيري في القضايا الكبرى كالله

والآخرة والجنة والنار. لم أخصص وقتا لهذه القضايا، وحينما تعرض في نقاشات الأصدقاء، تعود إليهم مهمة الخوض، والتعليق، واستحضار الأدلة والبراهين ليؤكدوا أو لينقضوا، أما أنا فصامت؛ فقد غسلت يدي منها منذ سنوات عديدة.

متجردا من الدين؛ لكنني لم أكن ضده. يساورني فضول معرفي حول الممارسة العملية؛ أعني العوامل التي تحرك في الإنسان روحه العدوانية. ما شغلني حقا هو ما الذي يجعل إنسان يفجر نفسه؟ ما الذي يدفع إنسانا إلى أن يقتل آخرين لمجرد أنهم لا يدينون بدينه؟ بم أفسر الانخراط في تشكيل الخلايا والتنظيمات العدوانية؟. يفعل الدين هذا؛ أيكون إذن أفيونا؟! أعتقد أن الدين منبِّه ومثير. أنا مع القائل إن الدين ليس أفيونا إنما الدين فيتامين.

أشرح هذا لأفسر أن لا علاقة لي بفندق يسكنه نصارى أو يسكنه مسلمون، إنما له علاقة بسعر الليلة: مائة وخمسين دولارا في فندق النصارى. يبدأ مجد الحياة من هنا، مجد حياتي اليومية التي عجزت فيها عن السكن في فنادق قال لي عوليد أنها الأنظف.

- full قال لي موظف فندق المسلمين. فندق علي صَبيح.

كيف شعرت أن هناك من يراقبني! نظرة محسوسة تشبه أصبعا لمس كتفي.

- يسكن معي. سمعت صوت أنثى.

استيقظ الذئب. أو لأقل صحوة تُسمى «صحوة الذئب». لا بد من أن الذئب يتحمل المشاق من أجل أن يكون ذئبا. افرخْ. هل

أصرخ لأقول: الليلة ليلتك؟. كنت على وشك أن أرقص رقصة الذئب. كنت قد شاهدت فيلم رقص الذئاب. ينقصني الحطب والنار وممثل عالمي وجائزة.

ما إن تمطى الذئب حتى كان بوسعي أن أرى بعين خيالي النعاج التي تجري في أرض معشبة من غير أن تعرف ما حدث، بينما قبض النساء على سراويلهن؛ لأنهن لا يستطعن أن يبحن بما شعرن به. تساءلن فيما بينهن أين يكون هذا الذي يفعل بنا ما يفعل؟ ثم بدأن يهوين من أعلى، يهوين من مكان ما يشبه السماء التي تعرض نجومها كما لو كانت ذئبا يستعرض أنيابه.

دفعت امرأة سمينة وشبقة زوجها إلى الشارع؛ لكي يرى ما يجري، ويصف لها ما رأى.

ـ لا أرى شيئاً يا امرأة.

ـ ماذا تقول؟ لابد من أن هناك أحدا.

ـ أقول لك: لا أحد.

ـ كن صادقا. بحق الله.

ـ اسمعي. لا تدعينا نتشاجر.

ـ لن نتشاجر.

دار هذا الحوار في الأحياء التي مرت بها سيارة عوليد. تلك الأحياء التي تعطي انطباعا بالعزلة، والفاقة، والإهمال، يظللها قدر ديني يقول كل شيء وينسبه إلى الغيب.

لحظات لا يمكن أن يعبر عنها. عُصارة ذاكرة. مخلوقات تعيش فينا، وتبزغ حينما تريد. صوت المرأة الخالد التي تقرر هي وحدها أن تسمعه للآخرين.

ظللت مذهولا، ومأخوذا بهذه اللحظات.

ثم تابعت الحوار

- ممنوع. قال لها الموظف.

- لكنني أعرف غرفا ينام فيها اثنان.

- وضعك مختلف. لو علم المُعلّم لقطع رزقي ورزقك.

أقعى الذئب. هنا أسد، وكنت قادرا على سماع عوائه المكتوم.

- كم تريد؟ سألتْ الموظف.

- أنت تريدين أن تخلقي لي المشاكل. أجاب.

أمسكتْ طرف خيط صوته الرخو

- كم تدفع له؟ سألتْني.

- لا أعرف. أجبت.

تبادلنا النظرات. أين رأيتها؟ طفا السؤال طرف عقلي، فتركته هناك يبحث عن إجابة.

- إذا كنت لا تعرف من يعرف؟!. قالت.

- لم يسبق لي أن جئت إلى هنا. قلت.

- ثلاثون دولارا؛ نصف لي ونصف له.

وقف الموظف. مد يده مصافحا.

ـ أنا أَرَسْ. مرحبا بك في جيبوتي.

لم أصعد معها؛ إنما طفوت. وتحت تأثيرها؛ تهيأ لي أنني تخلصت من الجاذبية الأرضية.

ـ رأيتك في المطار. قالت وهي تفتح باب الغرفة ٢٤٢.

ما معنى هذا؟ أن يلعب معي الواقع لعبة خبيثة. لا بأس؛ فأنا أحب هذه اللعبة؛ لأنها تشرح لي إلى أي حد يمكن أن يكون الواقع، وما حدود المحتمل؟ الواقع أعقد مما يتصوره الإنسان، وليس شرطا أن يكون سلسلة من الأسباب والنتائج. اللعبة ممتعة؛ لذا قررت ألا تكون موضع تفسير.

دلفنا إلى الغرفة. لا يبدو أنها معدة لكي تؤجر. قد تكون مخدعا، خَزْنة، فَيْضا؛ استحضرت هذه الكلمات لأعبر عما أراه. ثم فكرت في أن المسألة من أولها إلى آخرها وهم. مجرد خيال اختلقته في ذهني. لكن هذا واقع؛ فأنا أجلس طرف السرير، على الحافة كما لو أنه ليس من حقي أن أحتل مكانا أوسع من السرير، أو أن أكون مرتاحا أكثر مما يجب.

تمثال صامت وخجول.

ـ ما بك؟! تبدو مختلفا عما كنت عليه في المطار. قالت لي.

لم ينطق الذئب بكلمة، فقط حدق كأنه في حضرة نعجة سمع إشاعات عنها. النعجة هنا حقا، حاضرة بشحمها ولحمها، لكن الذئب لم يستوعب الحقيقة. الرجال أيضاً كالذئاب يعودون نعاجا حينما يكونون مذعورين وخائفين ومضطربين، لكنهم لا يجرؤون على أن يقروا بذلك.

أحسّت أنها مازالت في الثياب التي ذهبت بها إلى المطار. خزانة الثياب موجودة، دولاب أنيق ينتصب هناك. كان من الممكن عمليا أن تبدل ثيابها هنا، لأن ستارة يمكن أن تسحبها فتحجب السرير.

فيما هي تبحث عما تلبسه؛ رحت أسأل نفسي: لماذا عليّ أن أبقى؟ كيف لي أن أثق في فتاة لم أرها من قبل؟ وفي بلد لم أزره؟ أهو وجهها الذي أعاد لي ذكرى جارتنا رحمة؟ أهي جرأتها القادمة من وراء ستار خفيف من الحياء؟ جرأة الطفلة التي لم تعرف العيب بعد؟ أهي النعومة التي تفيض منها؟ أم بكل بساطة أن أبقى لأخلق لنفسي غاية ما؟ شيئاً ما لكي أمرّر الليلة إلى أن يدنو الصباح؟.

إنني لا أعرف عنها أي شيء! أهي مرتبطة أم غير مرتبطة؟ تنتظر أحدا أم لا تنتظر؟ تعمل أو لا تعمل؟ إن كانت تعمل فمعقول أنها تعمل.. طردت كلمة مومس. لا يمكن لأنثى بهذا الجمال أن تكون. الجمال سامٍ، لا يمكن أن يعكره الوحل. لكن أهو وحل فعلا؟ الأقسى من كل هذا أن يفضي هذا إلى سوء الفهم أو الوهم. أي مغامرة هذه التي دفعتني إلى أن أغرق في أنثى أراها أول مرة؟.

أن أجد فتاة كهذه فذلك يعني من أجل شيء ما، لكن ما هو. لم نلتق صدفة، ولن نفترق بلا سبب. هل جراحنا متشابهة؟. خائفا مثل كل مرة؛ رحت أفكر في أنني لن أعرف كيف أحبها، أو أنها لن تحبني مثلما أحبها، كان غريبا أن أجدني لست أنا التي تختبئ تحت جلدي؛ ذلك الذي كان قبل لحظة؛ يصعد الدرج، ويدلف إلى الغرفة، إنما إنسان آخر يأخذ الأمور بعقلانية، ولأول مرة أشعر بغيظ

تجاه قلبي الذي كنت أنتظر أن يتوقف عن تعذيبي، قلبي العنيد الذي يريد أن يثبت لي أنه يضج بالحياة.

ربما كانت الفتاة تجهل الخير والشر؟ وقد ولّد جهلها بهما أشخاصا عديدين؟ شرهين وفاسدين وموحلين؟. الآن أنا موجود. أنا التي اهتز لها من الأعماق، وموجود التي تكمل صراعي مع نفسي. أعادتني عادتي إلى الواقع، عادة أن تفكيري هو: أن الأسوأ هو ما سوف يقع لي. ما إن تلبس حتى تقول: آسفة. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لو سمحت غادر الغرفة.

ـ الغرفة غرفتك. قالت لي وهي تتجه إلى دورة المياه.

هناك جزء من الذئب والأفعى معجون في الإنسان جنبا إلى جنب مع جزء من الحمل والحَمام؛ تشبه الجماعة البشرية خلية كل عضو فيها شرير، ولأن الشر يخدم غرضاً فله قيمته، وفيما لو تُخلص من الشر فسيُتخلص أيضاً من الخير لملازمته الشر، مما يعني تحطيم الخلية ذاتها.

على هذه الخلفية؛ هناك. في دورة المياه، تخيلها الذئب فتى؛ ليس لأنه يحب الفتيان؛ إنما لأنه يعتقد أن عُري الفتى أجمل من عري الفتاة. يقف عري الفتى على الحدود بين الأنوثة والرجولة. قرأ الذئب في كتاب ما أن فتيان أثينا كانوا يتباهون بجمالهم كالطواويس، وأن فتيان انجلترا ارتدوا قماش الساتان، وانتعلوا الكعب العالي، ومشوا مشية راقصة، ومنذ تلك اللحظة أحب المرأة التي يشبه عريها عريَ الفتى.

توارى الذئب؛ لأنها خرجت من دورة المياه. استعراضية، غريبة وساحرة. ممتعة وناضجة. نصفها الأعلى أعرض من صفها الأسفل، يستقر فوق قدمين مدهشتين برقة العرقوب، ودقة الأصابع.

لبست بنطلون جينز أزرق، يعلوه قميص أبيض ضاغط وقصير بحيث تبدو سرتها. تمتمتُ: يا سليمان عليك الصلاة والسلام أنت الذي وصفت النهدين والسُّرة وتداولناه من بعدك. قلت في ذلك الجزء القديم من الإنسانية: نهدان كما لو كانا توأمي غزال، وسرّة كما لو كانت كأسا مترعة بالنبيذ. وصف أصلي يصلنا عند النظر إلى نهدين وسُرة. السعادة الأخيرة التي يمنحها الله لمن ينظر؛ لأن النهدين والسرة رؤية جمالية إلهية تحققان المنظر الفريد لجسد الأنثى.

ـ أنا ياسمين. قالت.

ـ أنا يحيى. قلت.

ـ أنا أثيوبية، وتقدر تقول حبشية.

ـ أنا سعودي، وتقدرين تقولين ٠٧.

ضحكنا، وقربت بيننا جاذبية الضحك التي لا تقاوم منذ ضحك آدم وحواء.

ثمة من يقول: إن الضحك نداء الإنسان للإنسان، تذكار التعارف الأول، طقس يمهد المسالك الوعرة وهو ما يبرر ضحكنا. سكتنا، ليخيم الصمت. تبادلنا النظرات، والابتسامات، وانتظر كل منا الآخر ليقول شيئاً. اختلطت الأشياء التي أردنا أن نقولها؛ لكن الفكرة تعرف الفكرة.

ـ ٢ ـ

ظهر اليوم الثاني خرجت من دورة المياه وصرخت

ـ أنا سعيدة لرحيلك! أتسمعني؟

تابعت توضيب حقيبتي.

ـ أنت نذل.

ـ أعرف. قلتُ ذلك من غير أن أرفع رأسي.

ـ أنت لا تجرؤ على أن تنظر إلى وجهي. أليس كذلك؟.

فكرت في أن أنظر إليها، لكن شيئاً ما كبحني. أيكون السبب وجهي الذي يكاد يكون وجه ذئب؟ لا يطاق الفعل (يكاد)؛ فبقدر ما يشير إلى الشبه، إلا أنه فعل خفي ومجرد، خَدّاع ومؤلم وعميق.

في حدود علمي لا اسم لذلك الصوت الذي صدر عنها. أو لأقل لا يوجد في معجمي اللغوي اسم له. أهو بكاء أم ضحك؟ أعتقد أنه خليط من وقائع مؤلمة تثير البكاء، وأحداث ساخرة تحول البكاء إلى ضحك. تعبير هجين ومريع؛ يشبه ما تشعر به النعجة عندما ترى الذئب.

ـ حظك؛ فرغت غرفة اليوم. قال أرس.

ـ احجزها لي.

ـ خمسون دولارا لليلة.

لم أقل نعم أو لا. فقط أعطيته الحقيبة.

ـ سأتغدى.

رأيتها تتجه إلى المطعم.

سارت بخطى موقعة، تبدو رصينة. ابتسمت فيما يبدو لأحد تعرفه؛ ابتسامة حيوية لجمال في حالته البكر، تسير لتعبر عن رغبة لا تقاوم في الظهور. رغبة من دون مقابل، لا هدف لها، ومن دون رمز أو مجاز «كالوردة. تتفتح. لأنها تتفتح. لا تهتم بنفسها. ولا ترغب في أن يراها أحد».

تذوقت الشذرة العميقة التي استحضرتها للتو. ثم فكرت أننا لسنا في عصر خرافي تعيش فيه الذئاب مع النعاج جنبا إلى جنب. انقضى زمن العجائب، أو أنه لم يأت بعد. أن يعيش الذئب من غير أن يفترس النعجة تهشيم للمنطق، وللطبيعة الفعلية للكائنات التي تبرهن على وجودها.

ـ كم ستبقى هنا؟. سألني أرس

ـ لا أعرف. حتى أجد سكنا.

ـ تدفع مقدما؟

ـ لا. حينما أخرج.

رغبتي في نسيان ما حدث الليلة الماضية أقوى محرض لكي

أتذكره. أكّدت لنفسي أن ما فعلته مع ياسمين ليس عملا طائشا، لكنه عمل ممكن. صحيح أن لا معنى له في تلك اللحظة، وفي ذلك المكان، وبتلك الطريقة، لكنه تسرع الذئب في ألا تسنح له الفرصة مرة أخرى. لا بد من أن تعرف النعجة أن ما حدث مكتوب لها؛ لا لشيء إلا لأنها النعجة، ولأنه الذئب.

عبرتُ البهو، وصعدت ثلاث درجات، ثم انعطفت يمينا لأدخل ممرا قصيرا وأنا أتطلع إلى الرسومات. وقفت عند مدخل المطعم لأقرأ لائحة الطعام. المطعم مزدحم فتباطأت في القراءة، وبين حين وآخر أرقب الموائد لعل واحدة منها تفرغ من الناس الذين شبعوا وبقوا يشربون القهوة.

هناك جلست ياسمين؛ حيث انضمت إلى عائلة: رجل يحدق في لائحة الطعام، وإلى جانبه امرأة، ثم فتى نحيف، وفتاة ذات شعر مجعد، ثم ياسمين التي تضع رجلا على رجل.

كشفت ياسمين لذات الشعر المجعد صدرها، وما أرته إياها يسجل لقاء سريا حدث بيني وبينها. ودار بينهما حوار يبحث عمن يسمعه. من المعاني الخفية للحياة أنني سمعت حوارهما.

ـ أنها أفضل برهان. قالت ياسمين وهي تشير إلى الندبة التي في صدرها.

ـ برهان على أي شيء؟ قالت ذات الشعر المجعد.

ـ لا أعرف الكلمات التي تعبر عن جرح بسبب لذة مشتركة.

ـ أهو متوحش إلى هذا الحد؟

ـ لا. قالت ياسمين. ليس وحشا. كل ما في الأمر أنه استولى على كياني، لذلك لكم يكن وحشا. الوحش لا يستولي؛ إنما يغتصب. أي متعة في فرق دقيق كهذا!! أن تستسلمي لكي ينهشك. في وعيك سيكون عملا باهرا، شيء ما يمكن أن اسميه «متعة العبيد».

ـ شكرا. قلت لهذا الحوار المتخيّل.

تابعت سيري ثم عدت إلى التفكير

ـ يعرف الإنسان لحظات لا يعرف لها تفسير ا. قلت وأنا أجلس إلى مائدة.

نقلت ياسمين إلى ذات الشعر المجعد متعتها، فشعَرتُ بنوع من الراحة. خمنت ذلك من ابتسامتها.

إما ذات الشعر المجعد فقد ضغطت نهديها على حافة الطاولة. كان ثمة فيما اعتقد شيء من لون جلد الذئب، وأذنيه، وعنقه. لم تكن ذات الشعر المجعد على استعداد أن تتحمل نهشة كتلك التي في صدر ياسمين، لكنها شعرت أن شيء ما هرب من صدر ياسمين وتسلل إلى صدرها.

حددت الوجبة. وجبة شهية لأنني جائع، ولأن الشراب غير موجود مكثت أمزمز سفن أب.

انتهى الجوع وبقي ما يشبه الجوع. الجوع الشبيه موجود وأنا جالس، موجودا وأنا أغسل يدي، موجودا وأنا ابتسم للفتاة ذات الشعر المجعد، موجود ا وأنا أخرج من المطعم.

ـ ما الذي فعلته بياسمين؟. سألني أرس

تجاهلت سؤاله.

ـ مفتاح الغرفة لو سمحت. قلت.

ـ لم تجبني. قال ذلك وهو يبتسم.

ـ لم أفعل شيئاً. قلت

ـ لقد نهشت نهدها. قال

ليس دقيقا أنني جلست قريبا منه، في الحقيقة أنا أقعيت كذئب.

جعلتني كلمة (نهش) أفعل ذلك حتى أنني شعرت بنابيّ يستطيلان. شيء غريب يحدث داخلي، تحسست نابيّ فبدوا حقيقيين. ضغطت على صدغي؛ أردت أن أعرف ما إذا كنت ما أزال إنسانا، وما إذا كنت أفكر كإنسان. أمازال الفندق فندقا ولم يتحول إلى حظيرة؟ والنساء نساء ولم يتحولن إلى نعاج؟ والوطن وطنا ولم يتحول إلى أرض غريبة؟. ألا زلت أمقت الاستبداد والظلم؟ أحب العدل والحرية؟ ألا زلت أحب الشراب الذي يجعلني أغوص إلى أعمق أعماق الأمور؟.

لم يشعر أحد بما حل بي؛ باستثناء البنت ذات الشعر المجعد التي كانت تنتظر أباها وهو يتحدث مع أرس. نظرت إليها كذئب؛ قبلتُ أن أكون ذئبا؛ ثم جاءت الذئبية بعد ذلك وشاعت في الجو.

لا بد أن الفتاة ذات الشعر المجعد شعرتْ؛ لأنها موضع الرغبة. ما إن استنتج خيالها ما لم يرده قلبها حتى تمرد جسدها كله. الآن وقد

وصلها المعنى الأصلي الذي يصل النعجة حينما ترى الذئب، عاشت اللحظة بعنف. هناك غابة عذراء، خضرة ومزهرة، وطيور تحلق مذعورة مما حدث.

- هي قلقة من أن يرى المعلم مكان نابيك؟ قال أرس.

أيكون أرس شعر بالذئب؟ إنه يقول «نابيك». لم يقل «أسنانك».

طردت الفكرة، لكن «نهش» و«نابيك» تزعجانني.

- من هو المعلم؟. سألته.

- مستثمر الفندق. أجاب

- أهو صاحبة؟.

- لا. مستثمر فلسطيني الجنسية. الغرفة محجوزة له. يأتي في كل مرة بواحدة؛ مرة أثيوبية، ومرة صومالية، ومرة أريتيرية. كلهن فاتنات؛ يقول إنه يعقد عليهن. بعضهن يخرج قدرها فتمكث يوما أو يومين ثم يطردها، وبعضهن يخرج حظها الحسن فتبقى إلى أن يخرج قدرها.

- ما الذي خرج لياسمين؟

- إلى الآن حسن حظها. قال.

وأضاف

- تعرف؟ أنت محظوظ.

تمطى الذئب، كان فوق تلة. لا ليس تلة؛ إنما هضبة، لا. ليس هضبة، إنما قمة جبل. ومن هناك أدار رأسه ليرى نعاجا سمينة، يرتفع خلفها صوت الرعاة وهم يغنون عائدين إلى بيوتهم.

ـ لم يحصل عليها أحد غيرك. قال أرس. حتى المعلم؛ أعتقد أنه لم يفعل شيئاً. تغريه من غير أن تدعه يفعل. تعده من غير أن تحقق وعده. طريقة ذكية جدا؛ كي تثير مكامن شهوته، وتجعله يتمسك بها؛ يكفي أن تحرمه منها.

ـ أنت تعرف عنها كل شيء. قلت.

ـ هي تقول لي، وما لا تقوله لي يقوله لي المعلم.

ـ مستودع أسرارهما. قلت ذلك وأنا أبتسم.

ـ ليس إلى هذه الدرجة. مثلما يجري في الحياة، كلمة منها، وكلمة منه. يمكن أن أرتبها بأكثر من ترتيب. الأهم من ذلك أن كل كلمة يمكن أن تُرتب بعدة طرق.

في الواقع أذهلني حديثه؛ يقيم حوارا، يعرض ملاحظات ذكية، يستخدم صورا بلاغية شديدة الذكاء، واستعارات تنبئ عن خيال خلاق. لم أجد تفسيرا، إلا أنه يقرأ.

قلت لنفسي ماذا عن هذا القارئ الذي لم يكتب كتابا. ماذا عن أمثاله الذين قرؤوا ولم يحصلوا إلا على وعود بكتبٍ لم تؤلف. لو صّدقت الذين ألفوا الكتب لقلت: يحتاج أرس إلى يكون جريئاً، يلتقط قلما ويكتب. سيقرأ الناس لأن هناك حاجة روحية وفضول بين كل البشر.

- ٣ -

أنا ممدد على السرير، وياسمين أقرب إلي من أي وقت مضى. لم يفارقني إحساس بأنني حظيت بها بأسهل ما يكون. أيكون ذلك بسبب استغلالي براءتها؟ وعبثي بمشاعر قلبها؟. ما أردته أن تكون عابرة، ولا قيمة لها. أن تكون، لكن من غير حب، ولا التزام. لو أحب الذئب النعجة لما افترسها. لا يستغرق ذلك سوى لحظة، ثم تبدو النعجة بلا أهمية، وليدة لحظة زائلة ثم زالت معها.

بوسعي الآن أن أغادر الغرفة، وإلى أن أعود آمل أن تكون أفكاري مؤقتة.

ـ هل توجد مقاهٍ قريبة؟. سألت أرَس.

ـ ما إن تخرج حتى تجد. سأقول لك: ربما تجد ياسمين في أحد المقاهي. المقهى كالفندق؛ إحساس بالرحيل. هل فكرت يوما في هذا؟ الوطن فندق أو مقهى، حالة التشرد هي القاعدة.

ـ أنت جيبوتي؟ سألته.

ـ الجنسية فقط. أبي أثيوبي، وأمي يمنية. كان يمكن أن أكون أثيوبيا أو يمنيا، لكن الأمور أخذت منحى آخر. في جامعة محمد

الخامس حيث درست في قسم الفلسفة كانوا يدعونني بالحبشي. طبعا يمزحون، لكن لا ينبغي أن نستهين بما يمكن أن تنبئنا به مزحة.

فلسفة! يعمل في فندق! لم يكن عندي مانع في أن أسأله لو كنا في وقت آخر. أما الآن فلا. أفضّل الخروج. كان في ذروة الحديث، وكنت قد تحركت. سمعته يقول: أهلا إدريس. تفضل.

خرجت إلى الشارع متطلعا إلى واجهات الأبنية. اتجهت إلى اليمين، وعبرت مائة متر تقريبا ثم جلست إلى مائدة. طلبت بيرة. كانت باردة، ومن الرائع أن أشربها وهي كذلك.

لم أشعر بغربة؛ أين ما قرأته وسمعت به؟! أنا في شرق إفريقيا حيث الحروب والدمار. ليست الغربة مخيفة، الوطن هو المخيف. بإمكاني أن أعيش هنا. ثمة أشياء غريبة وأنا أحب أن أرى، وممتعة وأنا أحب أن استمتع، وتجربة وأنا أحب أن أجرب. من الممتع أن أرقص وأشرب وأضاجع.

أنا مغامر وأتعطش إلى الأمان، أرفض وطني لكنني أحن إليه، أحب العزلة لكنني أستمتع بالتدخل في شؤون الآخرين، أفضل الحرية الخطرة على العبودية الآمنة. الناس هم الذين يفسدون الحياة، يرغبون في أن ينظر الناس إليهم بوصفهم فضلاء. لا أريد أن أكون فاضلا ولا عاقلا.

خرجت من المقهى لأكمل المسير. إلى اليمين تتراص محلات الحلاقة، وإلى اليسار ثمة دكاكين تبيع الملابس. اشتريت بنطالا؛ إذ أن الثوب لم يكن مناسبا، ثم إنه يثير الانتباه. ثم اشتريت قميصا.

فكرت في حرارة الجو ورطوبته فاقتنيت أقمصة خفيفة ومريحة. وجدت زوجا من الأحذية مناسبا لما اشتريته. استغنيت عن نفسي القديمة، وأول ما فعلته هو سلخت سطحي الظاهر.

لا يمكن أن أتقدم أكثر من غير أن أمر بدكاكين أخرى تبيع الفواكه، والخضروات، والأحذية، ولعب الأطفال. وفيما لو سلكتَ الطريق التي سلكتُها فستنعطف يسارا كي تنكشف لك حديقة بكراسيها وشجرتيها الضخمتين. ستجلس مثلما جلستُ في مقهى يشرف على الحديقة التي تغطيها شجرة هرمة، سيأتيك النادل ببيرة، وستشربها مثلما شربتُ نصفها وهي باردة جدا.

وأنا جالس، وصل متسول إلى الحديقة، تربّع وبدأ يخرج النقود، ثم توقف عند ورقة نقدية. تحسّسها ثم قربها من أنفه. فكرتُ؛ لا بد من أن يكون مصدرها امرأة، جميلة وفاتنة، وهو يشمها لذلك السبب. أتكون ياسمين هي التي أعطته الورقة النقدية؟ هذا الوغد. قلتُ. ثم فكرت؛ هذا القذر. استلقى، ورأيت جانبا من وجهه، وشعره المنكوش. ابتسم كما لو أنه نجح في تدبير مكيدة، ثم امسك ورقة النقود مرة ثانية. وغد. قلت؛ يسمي هذه حياة. لمن يبتسم هذا القذر؟.

كونت حكاية متكاملة: يجلس هذا المتسول أمام متجر فخم، ربما محل ذهب؛ أو إكسسوارات، أو أدوات تجميل. لا يهم. المهم أن يكون من الأمكنة التي لا يدخلها إلا الجميلات. لا بد من أن يكون المحل مكشوفا له؛ لكي يراقب حركاتها. تجمعت داخله

رغبات كل لياليه المملوءة بالخيبات، وانصهر داخله شيء ما وتركه مغمض العينين؛ حتى أنه لم ير الرجل الواقف أمامه ليعطيه ورقة نقدية. ملّ هذا الرجل من الوقوف فذهب، بينما فتح المتسول عينيه ليرى المرأة تمشي نحوه.

أمسك يدها. قال لها: لا تتركيني وحيدا. أنت! ساعديني! أنا متسول وليس لي أحد غيرك. قفي إلى جانبي. ليس لي سوى التشرد. كم أنت فاتنة! أوه. هل تتقززين لأنني لمستُك؟ كلا. آه! إنك طيبة المعشر. كنت مدفونا طيلة حياتي في المزابل. هل تعرفين معنى هذا؟ لا. أفضل. آه! أول مرة أرى الشمس. ابتسمت المرأة، لم تفهمه، ومع ذلك قالت: أجل. أجل سأساعدك.

وصل متسول ثانٍ، ومثلما فعل الأول؛ توقف عند ورقة نقود. ثم جاء متسول ثالث، ورابع، وخامس وسادس وسابع وثامن. احتجت إلى لحظات كي أتأكد من أن ما رأيته وهم بصري: ثمانية ذئاب. الذئب المسيطر يقف منتصبًا رافعًا ذيله، وموجهًا أذنيه إلى أعلى وإلى الأمام، ويبرز أسنانه مزمجرًا. ذئاب تنحني متذللة. كل ذئب وضع ذيله بين رجليه، ويحني أذنيه إلى أسفل، وهو يعوي.

جمع الليل بين (هؤلاء) الذئاب، تاركين خلفهم المدينة معزولة ووحيدة. تلاقوا ليناموا معا من غير أي رابط بينهم سوى البؤس والشقاء. هاهم يتشاتمون، يلعن أحدهم أبا الآخر، يبصقون على بعضهم بعضا، ويحثون التراب في وجوه بعض. ليسوا لصوصا لكنهم ينامون كاللصوص.

تغيّر المشهد؛ توسد كل واحد منهم حصيلة يومه، يتطلعون إلى السماء، وهم يحلمون بمدينة تكدس الخيرات المخصصة لمتعهم الفورية. لا بد من أنهم يفكرون في أن الناس طيبون بطبيعتهم، لكن المِلْكية أفسدتهم. هي آفة الروح البشرية. وأم الغرور والغطرسة والكبرياء والخداع والتملق.

يمر الناس من غير أن يعرفوا ما تضج به عقول هؤلاء. من ذا الذي يهمه أن يسمع مثل هذا. المدينة تتوسع والناس يتضاءلون، والشحاذون يلعنون الرجل الأول الذي سيّج أرضاً وقال: هذه لي، ويلعنون الناس الأولون الذين صدقوه وقالوا هي لك. الناس الذين ولدوا ليجلبوا الشر أكثر من سواهم. الإفساد عن قصد، الشبق والهوس، إدارة الظهر لكلمات رنانة كالعدل والحق والمساواة.

العتمة التي هبطت سحبتني من أوهامي البصرية. حين خرجت قبل ساعتين شعرت بالحر، أما الآن وقد غابت الشمس فقد بدأت أشعر بلطف الجو. قررت تناول العشاء في مكان ما. أعرف أنه لا جدوى من البحث عن مطعم جيد؛ فكل ما أريده هو ألا أرى المطبخ أو الطباخين. توقفت عن مطعم واحتسيت شربة عدس، والتهمت فطيرتين، ثم شربت بيرة. قلت لصاحب المكان وأنا أهم بالمغادرة: إنني أرغب في السهر. يمكن تدبير ذلك، أجاب. ثمة أمكنة كثيرة. تعال بعد العاشرة.

هاهي ياسمين تسير وحيدة، تبدو متلألئة كقطرة ندى، لكن قطرة الندى لا تبقى. تتلاشى ولا شيء يتلاشى في ياسمين. ابتسمتْ من غير أن تنظر نحوي. متجبّرة ومتوقّعة. لم يبد أنها اندهشت من

رؤيتي؛ ربما، لأنها مثلي تؤمن أن لقاء الصدفة هو الأجمل من كل لقاءات الحياة.

قدّرت أنها وصلت إلى الفندق فسرت متتبعا رائحة خطواتها، دخلت إلى الفندق من باب جانبي. سرت أولا في فناء مكدس بالأخشاب، ثم عبرت بابا يفضي إلى مخبز، وخرجت من روائح الخبز لأشق غرفة صغيرة تتكدس فيها المواعين، ثم إلى البهو حيث الأنوار المضاءة.

كانت ياسمين جالسة مع أرس ومعهما شخص ثالث.

ـ تعال. ناداني أرس.

ـ إدريس، صديقي الجزائري.

ـ يحيى، صديقي السعودي.

ينتهي وجه إدريس المخروطي بلحية مدببة، يرتدي بزة قديمة وفضفاضة. تُشعر رؤيته بالحرج، لاسيما حقيبته العتيقة الموضوعة إلى جانبه، بينما هو يتحدث باستعلاء لا يخطئه أحد.

ـ أكملي ياسمين. قال أرس

لم تكمل شيئاً فبدأ أرس يشرح لي

ـ تصور! متسول عاكس ياسمين. هيا أكملي الحكاية، وأكملت الحكاية.

تصوروا! أن أخترع حكاية ثم يظهر أنها وقعت!؛ لو حلمت لقلت إنني رجل صالح، لو أن الحكاية طفت دفعة واحدة لقلت تلك معرفة من النوع الثالث كما يقال عن حلول المسائل العلمية المعقدة،

لكنني اختلقت الحكاية! لو أنني تخيلت هذا ما صدقني أحد؛ فما بالك وقد حدثت.

ـ فكرة قصة. قال إدريس.

ـ أحب هذا النوع من الحكايات. قال أرس. وأضاف

ـ لا لأنها فكرة قصة؛ إنما لأنها إمكانات الحياة الهائلة.

شربت القهوة وأنا أصغي، في حين كان أرس وإدريس يتحدثان عن رامبو الذي جاء إلى مدينة أُبُخ في جيبوتي، وعن الباحث الفرنسي الذي كان يسكن هنا، ويروح ويجيء يتتبع الطريق التي سلكها رامبو إلى الحبشة. راقبت ياسمين بعناية من غير أن يبدو أنني أراقبها.

لا بد من أن أرس لاحظ أنني صامت، وكذلك ياسمين

ـ يحيى. ناداني أرس. أنت مدين لي بخمسة عشر دولارا.

ثم التفت إلى ياسمين

ـ ليس لي فقط؛ إنما أيضاً لياسمين.

ضحكنا جميعا.

نهضت وأنا لا أعرف أن كان هذا سيحدث، ما أعرف أنه يستحق أن يحدث: سيمحو قلب ياسمين ذكراي السيئة، وسيضخم ذكراي الطيبة. خدعة بشرية كهذه ستجعلها تشفى، إن لم تجعلها تشفى فستجعلها تنسى، ستشكل نسيجا حول ما حدث البارحة. ستغلفه وتختم عليه، بحيث تستطيع أن تشير إليه في يوما ما لتقول لي: في الليلة التي نهشت فيها نهدي.

- ٤ -

حِيَلٌ صغيرة: رتبت كتبي، ونفضت فراش السرير، ومفرش طاولة صغيرة، ووضبت الثلاجة. الحقيقة أن كل ما أفعله خداع لنفسي؛ فأنا مشدود بخيط إلى الغرفة المجاورة. أي صدفة هذه التي جعلت غرفتي تجاور غرفة ياسمين؟! يقال: الصدفة هي الآلية المعقدة للقدر. ربما الصدفة أكثر مما قيل عنها في العلم وفي الدين؛ فهي التي تقود حياتنا إلى أفضل مما نرغب.

أحد ما يطرق الباب! نادل أرسله أرس.

من الممتع أن تهبط وأنت تعد الدرج. الدرج أعداد، فُرض عليه النظام؛ درج في فندق يتجاوب مع الواقع الجوهري للأشياء التي يمكن التعبير عنها بالأعداد. الشكل والنظام والتناسب والحد والانسجام، في مقابل عدم التحدد والظلمة والفوضى والحركة والتغير.

الشكل مبدأ ذكوري وهو خير، والمادة مبدأ أنثوي وهو شر.

ـ صديقي واشو عثمان. قال أرس.

زنجي نموذجي، من أولئك الزنوج الذين تراهم مرة واحدة في حياتك.

- سمعت عن واشو عثمان؟ سألني أرس.

- لا. أجبت.

- ليس هذا؛ أعني البطريق.

- لم أسمع به.

- أسلم ثم ارتد في القرن السادس عشر.

- لا أعرف تاريخ هذه المنطقة.

- لا علاقة لهذا بذاك. أحببت أن أعرف فقط.

واشو صامت، حاولت أن أركز لكي أصفه، لكن لم أحصل من جسده كله إلا على أنفه المفلطح. لا أظن أنني رأيت أحدا أشبه بغوريلا منه. في الحقيقة لم يكن مظهره مريحا.

- واشو. أي شعر ستسمعه صديقي السعودي؟ سأله أرس

شعر! كدت أضحك، لكن شيئاً ما كبحني. أيكون أرس؟ أيكون واشو نفسه؟. أجل؛ هذان سببان. لولا الحجل لانفجرت ضاحكا، هذا الشيء الملعون الذي يسمونه احترام النفس.

تنحنح واشو كما لو كان يصفي حنجرته

آه! لو كنت فراشة

لحطيت على صدر الفرنسية العاري

لكنني أبو الجعران الأسود

ليس هذا ما قاله، إنما ما ترجمه لي أرس. لا أعرف أي لغة

تلك. ما أردته هو ألا يضيع أرس شيئاً من تلك القوة الصوت الغرائبية، ألا يقوض جاذبيتها. واستمر واشو

نسيت أنها امرأة

العَفَريّة ترقص بالسيف

غضب العفري

وأقسم أن يتزوج فرنسية

رفضتْه

لأنها بيضاء وهو أسود

تساءلت؛ أيهما أشد حزنا واشو الذي يلقي الشعر أم أنا الذي استمع إليه؟. كل ضعف، وكل عاهة جسدية، وكل مظهر من مظهر التعاسة رأيته في واشو. شواهد البؤس والفقر، وعلامات الضيق، والتلف النفسي ينبئ عنها تغير طبقات صوته. هل من الغريب أن يحظى واشو عثمان بقطعة خبز لقاء قصيدة. هذه المقايضة التي تهدف إلى إنقاذ آخر ذرة حياء قبل أن يمد يده.

لم يكن إدريس قد ذهب. لا بد من أنه مثلي شعر بتلك اللغة التي لا نفهمها، الشعور الأعمق من الكلمات، والأشد التباسا منها. ذلك ما يبرر نظرة الانبهار على وجهه.

ـ ماذا لو نسينا اللغة التي تعلمناها؟ سأل إدريس.

ليذهب السؤال إلى حال سبيله؛ لا أنا ولا إدريس ولا أرس نعرف الإجابة.

وصلت ياسمين، وأحَطْنا بواشو

ـ أنا مجنون. جني عائلتنا هو الثعبان. قال واشو

كان عليه أن يتوقف بين حين وآخر ليترجم أرس

ـ لو قلت لكم أن الشعر يسكن خلف غابة، فلا أظن أنكم تعرفون أن خلف الغابة شجرة ضخمة ومعمرة، ولو قلت لكم أن خلف الغابة شجرة ضخمة، فأنى لكم أن تعرفوا أن في الشجرة عودا يابسا، ولو ذهب أحد منكم إلى هناك، فأنى له أن يعرف أنه لا بد من أن يعلق في العود اليابس عُكّة من السمن ليكون شاعرا. قال ذلك واشو وسكت، ثم أكمل. وهاهي حكايته كما ترجمها أرس

قامت شهرة واشو عثمان على المغامرات. قبل ستين سنة قام بأول مغامرة حينما حمل عُكة من السمن واتجه بها إلى إحدى الغابات. الليل ساكن، وقد انطوت عتمته على رعب غامض، لكن من يريد أن يكون شاعرا يجب أن يكون شجاعا؛ ليعلق عكة السمن على شجرة ضخمة في عمق الغابة.

في تلك الليلة اشتد خوفه، لكنه رسم لنفسه أن يكون شاعرا، وإذا كان خائفا فمرد ذلك إلى أن قدر الشاعر أن يتحمل خوفه حتى تأتي اللحظة التي تظهر فيها شجاعته. الليل أخطر من كل الليالي التي عرفها، وما يبعث فيه الرعب شعوره بأنه مراقب وملاحق وعلى وشك أن يقع في فخ.

بعد أن وصل إلى فضاء مفتوح، تتناثر فيه جذوع يابسة، وتتدلى فيه أغصان متغضنة تكاد تلامس الأرض. ينتهي الفضاء حيث تبدأ كهوف ضخمة، تحتها مياه راكدة وكائنات لم تر الشمس، وحيث

تنتهي هذه الكهوف توجد شجرة ضخمة سيعلق عليها واشو عثمان عكة السمن، ثم يستلقي لكي ينام، وحينما ينام يجب أن يحلم أنه يشرب لبنا مخلوطا بشَعر. وحينما يستيقظ يجب أن يكتم الحلم عن البشر وألا يحكي الحلم فيما بعد في أذن بقرة سمينة وتدر اللبن.

حدث ذلك قبل سنين عديدة، ستين سنة أو أكثر قبل أن يحدثنا عنها. في تلك الليلة لم يحلم واشو بأنه يشرب لبنا ممزوجا بالشعر، والبقرة التي روى لها في اليوم التالي حلما لم يره لم تنتفخ، وبالتالي لم يصبح شاعرا لكن شهرته بدأت تشيع لأن الناس رووا ما حدث له بصورة مختلفة.

جزء مما رواه الناس حدث فعلا، لكنهم أضافوا أجزاء كثيرة من مخيلتهم وشرعوا يضخمونها. الجزء الذي حدث فعلا أنه أصبح يتحدث في نومه بما فعله سرا في النهار، أما ما أضافه الناس من مخيلتهم فهو أنه حلم أن رجلا قال له:

ـ اطلب ثلاثة أشياء فقط لا غير.

قال واشو عثمان:

ـ «اجعل رأسي أكبر الرؤوس» فتحول رأسه إلى رأس حمار.

ـ اجعل رأسي أصغر الرؤوس «فتحول رأسه إلى رأس ذباب».

ـ «اجعل رأسي يعود مثلما كان».

تبدد مظهر واشو عثمان الشبيه بالغوريلا. تبدد لأنني أحببته. ما كان لي أن أغير ما هو مكتوب بأنني سأحبه. لو علمت آنذاك بأنني سأحبه، وأنه سيكون صديقي لفررت من صداقته.

ـ ٥ ـ

الضرورة تخلق الفكرة؛ تدق ياسمين الجدار، وأدق أنا. هكذا اعتدنا على التخاطب. لا أعرف من بدأ الفكرة، ولا أستطيع أن أشرح الطرق الملتوية التي أوصلت إلى هذا التجريد: نحرز ما يجول، ونصغي إلى الدق. كل ما تصغي إليه آذاننا تحوله عيوننا إلى صور، ومن ثم تركض مثل كلمات فوق شفاهنا الصامتة. عادة ما تؤخر العجلة الأمور؛ لذلك تركناها تنضج بهدوء.

لأنني عبرت الشارع من قبل؛ فأجمل ما فيه الآن هو أنه جعلني متبلد الإحساس، فقد أصبح من الأمور العادية أن أرى آلام الحياة وعذاباتها. أكثر ما يلفت النظر الأطفال. يبدو أن للنساء قدرة هائلة على الإنجاب. الشابات والعجائز على حد سواء يسرحن شعورهن ويعقدنها في مؤخرة رؤوسهن، ويضعن فوق الرأس شراشف صفراء أو زرقاء أو حمراء.

لوّح لي إدريس وأنا أفكر: أشرب أم لا؟. عبرنا الشارع وجلسنا إلى مائدة. بدا إدريس ثملا، لكنه متوازن، ويقول كلاما مفهوما ومعقولا.

طلبت بيرة

ـ اطلب ويسكي. اليوم قبضت الراتب. قال إدريس.

ـ ليس وقته. قلت.

ـ هل تريدها؟ وأشار إلى إحدى الفتيات.

التفتتْ كما لو أنه لمس مؤخرتها. لم أكن في حاجة إلى أن أجهد ذاكرتي، كانت الفتاة ذات الشعر المجعد. يقال أن الذئب يحدد منطقته بأن يبول فيها. أيكون إدريس شم شيئاً من هذا؟!.

ـ يبدو أنك أنت الذي تريدها. قلت

ـ لا أريدها. تعرف لم؟ لأنك وسمتها. يا لنظرتك! كما لو كنت ذئبا. التفتتْ لا لأنها شعرت بما قلته، إنما لأن النعجة شمت الذئب.

تهشم المنطق؛ لأنه النتيجة الملائمة لسلسلة من الأحداث. لم يبق إلا المعنى المفتت. أردت أن أعرف كيف حدث هذا، لا فائدة من أن نبدل اللامنطق بالمنطق، فلا أحد يستطيع أن يفسر ما حدث، ولا أن يصفه أو يسميه. أو على الأدق لا أحد يقدر أن يميز ما إذا كان حدسا أو شيئاً آخر يصدر من الإنسان ذاته. لا توجد كلمات، إنما تتفتح النفس الإنسانية بدون لغة.

تجاهل إدريس ما كنا نتحدث عنه، وبدأ يتحدث عن اشتغاله بالشاعر الجاهلي امرئ القيس. يريد أن يكتب عنه كتابا يجنح إلى الابتكار أكثر من البحث. جرع ما تبقى في كأسه. تنحنح ثم كح، وكان على وشك أن يشرق، واستمر في الحديث في الحديث عن مشروعه الأدبي.

ـ الشيء المبتكر لا يقل وقعه عن أي حادثة تقع.

أصغيت إليه، واقتصر دوري على «نعم»، وعلى «حقا!!؛ لماذا؟». في الحقيقة كان حديثه قوة تحريض الرغبة على أن تعمل، جعل النفس البشرية تمتحن النفس البشرية لتكتشف ما هو جدير بالابتكار. صحيح أن أفكاره غير مكتملة، ولا تقدم حلولا مقنعة، ومع ذلك فهي أفكار موحية.

ـ أما أنا فأشعر بالقرف. قلتُ. لا أريد أي التزام، حين أستيقظ من النوم أريد أن أكون فارغا. أود أن أقول: رائع. لا يوجد أي شيء أنجزه اليوم. إذن؛ سأعيش اليوم كما هو، من غير أي أفكار مسبقة. لا توجد عندي فكرة الأهم ولا المهم. كل شيء مُهِماً مهما كان تافها.

ـ تعرف. قلت أخاطبه. أمتع الأشياء أن أوقت المنبه لأصحو مبكرا، لكن لا لأنجز شيئاً ما، إنما لأقول: لك الحمد يا رب، لا يوجد شيء أنجزه اليوم، ثم أسترخي.

تحدثنا، وكلما تحدثنا أكثر اكتشفت قلة ما يجمعنا.

ـ لو أن الشعب لا يخاف من الملك لعاش سعيدا. قال إدريس من غير مناسبة. الملك أيضاً ليس سعيدا لأنه يخاف من الشعب. الخوف هو المعوق الأساسي لسعادة الإنسانية.

تذوق ما قاله للتو كما لو كان شيئاً محسوسا ثم استمر

ـ ليس خوف الشعب من الملك إلا سلسلة طويلة مما يستخدمه الملك لكي يكون الناس في خدمته. يخاف الناس من الله، ويخافون من الموت، ويخافون مما سيحصل بعد الموت. لو تخلص الشعب

من الخوف من الله، ومن الخوف الموت، ومن العقاب في الحياة الأخرى لكان سعيدا.

شعرت بما تحدث عنه إدريس بالمعنى العميق لكلمة «يشعر». أعرف آلام وعذابات الشعور بالخوف الذي لا ينفع معه إيمان، ولا حكمة، ولا إله. الخوف بالغ القسوة، والإنسان بالغ الضعف.

عدنا إلى الفندق ووجدنا واشو عثمان، ترتسم عليه ملامح القدم والوحشية والغربة.

ـ جد إفريقيا كلها.

قال ذلك إدريس، وترجم أرس لواشو عثمان ليضحك واشو ثم بدأ يسعل. أخرج من جيبه ما يشبه الجزرة وشرع يقظمها. في الحقيقة أن كلمة «هادئاً» تبدو فضفاضة لكي تصف حالته.

لأنني أسود

فلن أكون السائس

ولا الخيل

إنما الكلب المربوط خلف العربة

يهرول راضيا

أو يُسحب رغما عنه

ترجم هذا أرس. في الحقيقة أن ما حدثنا به أرس استخلصت منه؛ أن واشو عثمان الجليل والخبير، الزنجي العارف قد توصل إلى الرؤية العميقة لمن لم يتلوث بالحضارة. منح من يصادقه معونة

روحية. أنقذ ياسمين من الانتحار، وتصرف معها كما لو كان ولي أمرها المحب والحبوب معا.

يبحث واشو عثمان عن سكينة نفسية هادئة، وقد وجدها في الشعر الذي تُعلق فيه الأحكام. ليس في الشعر صحيح أو مزيف، ولا خير أو شر. الصمت وتعليق الأحكام مثل أعلى وغاية كبرى. لا يستطيع أن يثبت أو ينفي؛ حينئذ تلحق بواشو عثمان السكينة كما يلحق الظل بالجسم.

في الحقيقة أنني لم أكن متأكدا ما إذا كان ما تحدث به عن واشو عثمان من الأسباب أو النتائج. فأرس ذكي؛ بحيث إنه إذا نظر في شيء حولته ملكته إلى أفكار متماسكة، يجمع بين بصيرة أصيلة وعميقة وإرثٍ من التقاليد الغنية والمختلطة التي بقي وفيا لها.

لم يكن أرس يدير بالا للشكل الذي يتحدث من خلاله؛ حكاية أو قصة أو شعر... فالفكر هو الشيء الذي يدير بالا إليه، وقد طوع من لغته قدرة على التركيز العقلي. تجبره قوة أفكاره على أن تكون تعبيراته فخمة. يستطيع أن يتوقف عن الحديث ليدخل في مفاوضات مع زبون، أو الإجابة عن استفسار نزيل، ويعود إلى الحديث كما لو أن الموضوع بقي في ذهنه طوال تلك المدة.

- ٦ -

بعد نزهة طويلة قادتنا أنا وإدريس سيرا على الأقدام مرورا بقصر الرئاسة الجيبوتي، وقصر البرلمان والمعهد العلمي السعودي إلى الكورنيش، تلتها فترة راحة قصيرة تأملنا فيها البحر. تناولنا العشاء بدعوة من أرس في مطعم قريب للأسماك. هناك جاء واشو عثمان، ثم لحقت بنا ياسمين.

غالبية المتواجدين في المطعم من الفرنسيين الملتحين والطاعنين في السن، وعلى ما يبدو فإنهم هنا مع عشيقاتهم الإفريقيات الصغار السن. ثمة آخرون، ويبدو من أطفالهم أنهم فرنسيون متزوجون من إفريقيات. وحدها فرنسية تجلس هناك في طرف المطعم، أقرب إلى واشو عثمان. ضخمة وليست طويلة، صدرها عار، وتتكلم مع نادلة طوال الوقت.

بعد أن رُفعت المائدة، سمعت واشو يتمتم. ضحك أرس، وضحكت ياسمين. ثم ترجم أرس

كهفٌ

ذاك الذي

يفرق بين نهدَيْ
الجالسة هناك

لا أعرف ما إذا قال ذلك واشو عثمان أم اختلقه أرس. يراودني شعور أن أرس يتلذذ، ونحن ننصت إلى ما يترجمه، وليس بعيدا أنه يضيف وينقص، لكي يجعل حديث واشو ذا جاذبية أكثر. وقد اعتقدت منذ تلك اللحظة أن واشو عثمان هو قناع أرس الذي لم يكتب بعد حرفا واحدا.

خرجنا من المطعم لنسير عبر الكورنيش الهادئ إلا من بعض الأثيوبيات اللاتي يعرضن أجسادهن. تقف السيارة قريبة منها، لا يترجل الزبون سائقا كان أو راكبا. تبدأ هي في عرض نهديها وفخذيها. بعضهم يطلب منها أن تنزل لكي ترفع إحدى رجليها على الرصيف، بينما هو يراقب الجسد، أمراضه وعاداته. البعض يعبث، والبعض جاد. أما هي فمن الأفضل أن تكون مستعدة.

ـ الجسد مُجنّد للبيع والشراء. قال إدريس.

ـ الجسد هو الشيء الصغير المعروض. الأشياء الكبيرة لا تعرض هنا. قال أرس.

تلافيا لما يمكن أن يحدث من مضايقات اقترح أرس أن تسير ياسمين بيننا. الحقيقة أن ما يحرسها ويحرسنا معها هو واشو عثمان؛ فهيئته ومشيته ورمحه تجعل الآخرين مذعورين.

ياسمين إلى جانبي، وإلى جانبها الآخر واشو عثمان، في الأمام

أرس وإدريس. قافلة صغيرة ومتفاهمة. لاشيء يعكر صفوها سوى ما تراه. نتكتل أحيانا لنتفرج على شيء غريب ثم نفترق. شيء واحد يعكر الصفو هو الذئاب التي تستيقظ. يقال أن الذئاب تعيش في مجموعات ومعها أنثى وهانحن نعبر الكورنيش والجميع يفكر كالذئاب في انتهاك القوانين، وعبور المناطق الممنوعة. يفكرون في أن يتلاعبوا بالقوانين التي تسن وتنظم المجموعة. وحدها ياسمين المطمئنة إلى الذئاب، لا لأنها تقوى على المواجهة، إنما لأنها جعلت منا ذئاب سيرك نسيت طبيعتها الذئبية.

تجاوزنا الكورنيش، وعبرنا طرقا وزوايا مظلمة لنخرج في ساحة كبيرة مضاءة بمصباح كهربائي معلق في عمود مائل. اقترح إدريس أن ندلف إلى بار. في الحقيقة نحن لم ندلف إنما هبطنا مجموعة من الدرج، لنجد أنفسنا أمام ثلاث قاعات: واحدة للرقص، وواحدة للبليياردو، وواحدة للجلوس. طلبنا ويسكي، وطلبت ياسمين عصيرا، وحده واشو عثمان لم يطلب شيئا؛ إنما أخرج ما تبقى من جزرته تلك التي بدأ يقرظها من العصر.

يبدو أن ياسمين اطمأنت إلى ذئابها في مواجهة الذئاب الأخرى التي أقعت تتملى فيها، لذلك شرعت في إغوائهم، ثم تجاهلتهم، إلا أنها تعرف أنها موجودة في منظورهم، في المنطقة التي لا يرى فيها الذئاب النعاج، لكنهم يشعرون بوجودها فيها.

ليس كثيراً ما صببته لها ومزجته بالكاكولا.

ـ أجرب، قالت.

لكن مفعوله ظهر بسرعة.

ـ أنا مجازة من معهد لتعليم الموسيقى في إثيوبيا. قالت. حصلت على بعض المعارف القليلة في المسرح والسينما. أتوقع أنني ذكية. لا أزعم أنني جميلة. ربما أكون بشعة، قبيحة، شنيعة. اختر ما طاب لك من هذه الصفات. لكن المؤكد أنني باردة جنسيا.

لم أشأ أن أعلق، في مثل هذه الظروف تزيد التعليقات الحالة.

ـ أنت لا تفهم في الجنس. تشبه الديك. قالت لي

لم أشأ أن أجادل، فقد شعرت أن ما قالته صحيح.

ـ حتى ذلك الثور لا يفهم. فلسطيني وأنا قضيته التي لم يحلها. أنا القضية الفلسطينية. قلت له ذات ليلة وعليك أن تحلها. تصور! ضحك ولم يحزن. حينما يأتي سأقول له: هناك من حل قضيتك، وأريه صدري.

من حسن الحظ أن إدريس وأرس يلعبان بلياردو، وان واشو لا يفهم العربية التي تكلمت بها معي. لكنهما ذهلا وياسمين تشق طريقها إلى قاعة الرقص.

تبعها واشو وجلس على كرسي قرب المكان الذي صعدت إليه. ياسمين الآن واقفة وسط قاعة الرقص، تشعر بتوتر في شرايين الذئاب التي تعيش في إقعائها بشعور التوتر ذاك.

ذئاب في هيئة بشر؛ يغمضون أعينهم ويصلون إلى ما يتمنون، ويبلغون الذروة حينما تكون هي قد بدأت ترقص. استلقت ونامت في خيالهم وركبتاها مرفوعتان، وساقاها مفتوحان، وعضوها بارز، بينما هي شرعت تهز جسدها مع الإيقاع الإفريقي، مخلوقة متوحدة مع إيقاع خرج من غابة. من ذاكرة وعي، من ضوء القمر، من الروح البشرية، من روح الفراشة التي تتحدى الموت باحتضانها النار، من النار التي تتحرك وترقص للفراشة القادمة.

ـ يا إلهي! ما الذي يفعله واشو؟! قال إدريس.

ـ يكتسب القوة المقدسة، لابد من أنه يريد أن يشفي ياسمين. قال أرس.

لا أعرف، مذهول مما أرى، ومما يحدث.

ـ مازال واشو يعيش الزمن الحالم. قال أرس. الزمن الذي يسبق اختراع القراءة والكتابة. ما زال يحافظ على لغز البشرية، يجب أن نتواضع نحن الذين نعرف القراءة والكتابة لكي نتعلم منه.

هناك شيء عميق، وغير متوقع، ويكاد يكون أبعد من قدرتي على التصور.

ـ اهدأ. قال لي إدريس.

شيء ما هناك يعتري واشو؛ قد يكون خبالا، تشوشا ذهنيا، استغراقا في الهلوسة، تهيؤات. يجب أن أفترض أنه الآن كلي التملُّك، رشيق كالفكر، يشتعل في كأس، متروك كعربة خيل بدون

سائس، فقير يشعر أنه اغتنى، زائل يشعر أنه خالد. كل هذا ممكن، في تلك اللحظة التي لا تتأتى لنا إلا إذا كانت أعيننا تحدق في الشكل الأولي للمخيلة البشرية.

خيم الصمت، وكرهنا العودة إلى عالم الواقع. ليس نحن فقط، إنما كل المتواجدين في البار.

- ٧ -

لم يكن لدى أرس النقود الكافية لكي يشتري الكتب، لكنه يحصل على الكتب التي تركها نزلاء الفندق، وحينما صار صديق إدريس، أصبح هذا يستعير له الكتب من المركز الثقافي الفرنسي، وفيما بعد أصبحت أنا الذي أجلب له الكتب.

كنت قد اكتشفت مكتبة المركز الثقافي الليبي. في الحقيقة ما جعلني اكتشفها ليس الكتب؛ إنما الفتاة التي تشرف على المكتبة. رأيتها صدفة؛ الذئب هو الذي استدل عليها، وإلا فقد كانت تعبر شارع الجمهورية مع العشرات من النساء، وهناك العشرات الأخريات من الطالبات الغاديات إلى والرائحات من ثانوية جيبوتي التي تقع بداية الشارع. هناك، في الناحية الأخرى منه، بعد أن تكون قد تجاوزت المركز بخمسمائة متر تقريبا، تاركا إياه إلى يمينك.

ظننتُها وهما صادرا عن حواسي. لم تسير في هذا الشارع؟ في قلب هذه المدينة؟ لم كُتب علي أن أراها؟ وأن أقتفي أثرها؟ كافحت القدر، إغراء أن أذهب خلفها، واقع الأمر أنني لم أكن أتصور المدينة والشارع سوى تصور غامض، وأكثر من ذلك كنت أضع الشارع تقريبا فوق صورة ذهنية للمدينة التي عرفتها. ما كان يهمني هو الطريق الذي سلكته.

يستحق هذا المشهد المشاهدة: ذئب يمط رقبته، ويرفع رأسه لكي يشم. ذلك أنا خلفها وهي تشق طريقها بين الناس، وتطفو فوق فوضى الشارع. تبطئ كما لو كانت تتحسس ثم تسرع، وهو خلفها وفمه مملوء بهَبَر اللحم. أعي أنني إنسان، وأتصور أنها يمكن أن تلتفت، فأتوقف مذعورا. ثم أراها تبتعد فيطفو الذئب. دلفت إلى المركز وهو خلفها من غير أن يفضح نفسه، وما إن استقرت في المكتبة حتى كان الذئب قد سلخ عنه هيئته.

أيا كان المشهد فإنني أقدّر أن الفتاة ظنت أن هناك من يتبعها، وفي ذروة فزعها ما كان عليها سوى أن تحث الخطى. من المؤكد أنها عندما تأكدت أنني أتبعها شعرت في لحظة فزعها، ومن غير أن تعي لذة أن يتبعها أحد. أسرتُها أنا الذي لا تعرفه. تجهله. حتى أنها تعلقت بخطواتي.

- كنت تسير خلفي؟

- تقريبا.

- تقريبا تعني أنك كنت مترددا.

- لا.

- ماذا تريد؟ الناس ينظرون إلينا.

- ما علي سوى أن آتي هنا إذا أردت رؤيتك.

- لتقرأ أم لتراني؟

- تعرفين. الأمر يختلف معك. أعرف أن ما أقوله سخيفا لكنه الحقيقة.

استسلمت لي؛ بسبب السعادة التي أحست بها من كلامي.

- إنني أفكر أي روعة أن أجد صدفة فتاة مثلك!!

- أنت تبالغ.

- أبدا. لقد رغبت في مطاردتك حتى آخر جرف في العالم.

انتبهت إلى أنني نزق وطائش. هل ينبغي أن تكون ذروة المطاردة دعوتها إلى الفراش؟ ولأنني أجهل الظروف التي ستساعدني على أن أراها مرة أخرى اكتفيت باستعارة الكتب. ثم ابتعد أحدنا عن الآخر، لكن بعد أن كومت مطاردتي لها من اللذة ما لا يوصف إنما يعاش.

عرفت أن اسمها أفراح. لطيفة ومرحة وتعتني بكل زائر. تحتاج إلى أن تنظر إليها مرتين لكي تروقك. تلبس تنورة جينز قصيرة، وبُدي، وجاكيت أزالته بعد أن جلست. ومن غير أي سبب يدعوها إلى أن تثق بي؛ قالت إن بوسعي أخذ ما أشاء من الكتب، بضمان عنواني. شكرتها، وخرجت من هناك بموعد، وبكتاب القائد والزعيم «الكتاب الأخضر» هدية.

- أووه. كتاب الزعيم! قال إدريس.

- إنجيل ثورة الفاتح! علق أرس.

لم أكن قد قرأت الكتاب؛ لذلك لم أعلق.

- هذا كتاب شرير. قال إدريس. الكتب الشريرة يؤلفها متحمسون، وغير ناضجين؛ لأنهم يعتقدون أنهم وجدوا الطريق إلى السعادة. هناك ثغرة يتعذر أن يتصورها مؤلفو مثل هذه الكتب؛ وهي

أن الأمور لا تجري في الواقع مثلما توجد في الكتب، حينئذ تحولون إلى ثرثارين.

لا بد من أن كلمة (ثرثارين) هي التي دفعت أرس إلى أن يعلق.

- هل هناك ثرثرة أكثر من (إسراطين) التي دعا إليها؟!

كانا يتكلمان كما يليق بعارفيْن؛ لغة سليمة وصافية، وإن لم تكن غير محايدة كما لو كانا يفكران في قواعد اللغة أكثر من أن يفكرا في حياديتها.

- تذكرني كلمات الزعيم برواية ١٩٨٤ . قال إدريس.

فتح حقيبته، وبدأ يفتش، ثم أخرج دفترا من تلك الدفاتر التي يكتب فيها الطلاب.

- أسجل فيه ما يعجبني أثناء القراءة. قال

تصفح بسرعة ثم توقف عند إحدى الصفحات.

- اسمع. ولم أكن أعرف ما إذا كان يقصدني أم يقصد أرس. وسمعنا ما يقرأ

- إن مهمتنا الرئيسية هي اختراع كلمات جديدة، لكن لا، لا أبدا. إننا ندمر الكلمات، أعدادا كبيرة منها، مئات، كل يوم. إننا نقطع اللغة، نجردها حتى العظم.

أغلق الدفتر وهو يثني على جورج أوريل.

- تعتقد أن الزعيم يشبه الأخ الأكبر في الرواية؟ سألت إدريس

- هو الأخ العقيد. لكن قل لي: قرأتها؟!

ـ نعم. أجبت.

وأضفت

ـ تُرجمت عندنا منذ وقت مبكر.

ـ ونُشرت؟ سألني.

ـ نعم. وفي أهم سلسلة كتب محلية.

ـ رائع. وهل فهم القراء الرسالة؟

في الواقع حينما سأل؛ لم أستطع أن أتجنب الحنين إلى ما يعرفه وأنا لا أعرفه.

ـ لم أفهم. قلت

ـ كان جورج أويل يحذر.

وأضاف

ـ يريد أن يقول: أيها القراء لا تتركوا هذا يحدث. الأمر يعتمد عليكم.

كنت على وشك أن أقول له: لقد(حدث) هذا في وطني، لكن شيئاً ما كبحني. أتكون اللغة التي تعبر عما (حدث). ربما؛ فلكي أنقل ما (حدث) في أجلى صوره أحتاج إلى أن يكون في متناول يدي الكلمات التي تصور ما (حدث) وأنا لم أكن أملك الكلمات.

الحديث ذو شجون، وليس من الممكن أن يبقى الأصدقاء يتحدثون في موضوع واحد طوال الوقت. لابد من أن يكون هناك ما يرطب الحديث ويليّنه.

ـ واعدت الفتاة التي تعمل في المكتبة. قلت

ـ ليس في الفندق. قال أرس. فندق مسلمين. قال ذلك ضاحكا.

ـ دعك منه. قال إدريس. فلتأت بها إلى شقتي. شقة نصارى.

لأول مرة أسمعه يضحك. طريقتة غريبة في الضحك؛ هز نفسه قبل أن يظهر صوت ضحكه.. أخ.خ.. خ.. أنهي ضحكته فجأة، كما لو أنه تذكر أنه يضحك، وهو لا يجب أن يفعل ذلك.

لكي أتعرّف شقته؛ كان علي أن أصعد معه شارع الجمهورية، وأن أتوقف في نهايته لكي يعبر القطار القادم من أثيوبيا، وأن أشق دوّارا صغيرا؛ لأدخل شارعا صغيرا كثيف الأشجار أوصلني المستشفى العام. ما أصعب أن أصف الأكوام البشرية المكدسة!! ففي ذلك ألم للذات، وألم للقارئ الذي سيظل يبحث طوال حياته عن شبه لما يقرؤه دون أن يعثر عليه؛ حتى يسافر إلى هناك.

تقع شقة إدريس في الحي المجاور للمستشفى. غرفتان ودورة مياه غير مريحة لمن اعتاد مرحاضاً مريحاً. مفرحة ومبهجة؛ لأنها تطل على حدائق لفلل مجاورة. أخبرني أنها مؤجرة من قبل وزارة الاقتصاد التي يعمل فيها مترجما من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية.

كان الوقت عصرا، وفيما اتجه إدريس إلى دورة المياه صبت لي الخادمة كأس ويسكي. عاد إدريس بلا أسنان أمامية. كنت أفكر: أهو هكذا منذ البداية، ولم أنتبه إليه؟! صب كأسا وقعد. لا أعرف ما الذي شعر به ليقول: إن أسنانه الأمامية تحطمت منذ زمن، وأنه وضع طقم الأسنان البديل في مطهر كما هي عادته كلما عاد من الخارج.

بدا في منزله ألطف وأكثر تواضعا مما كان في الخارج. حدثني عن طبيعة عمله، وعن المشروعات الاقتصادية التي تقدمها الدول الغنية؛ لتجد طريقها إلى جيوب المسؤولين. وعن كرهه للفرنسيين حتى أنه لا يستطيع أن يتحدث عنهم بحياد. لا أعرف ما شعوره تجاه أعراق تعج بها جيبوتي، لكنني حدست أنه لم يكن يطيق إلا نفسه.

ـ فتش تجد. قال

ثم أراني مجسمين صغيرين.

ـ عثرت عليهما تحت ركام في محل في سوق الذباب. قال

المجسم الأول لفتاة، والآخر لما يظهر أنه كنيسة.

ـ هنا شيء مكتوب. قلت له

ـ أعرف. قال. أنتظر العودة إلى الجزائر؛ لأعرضها على خبراء.

ـ لم لا تريها أرس؟ ربما يعرف اللغة.

ـ فكرت في ذلك. ثم ترددت؛ ربما تكون ثمينة وأفقدها.

وأضاف

ـ سأفكر في الأمر.

ـ الآن بوسعي أن أغادر. قلت. على أمل أن أعود إلى هنا.

ودعني على أن نلتقي في الفندق، بعد أن يكون قد أنجز ترجمة ما تبقى من أحد المشاريع.

ـ ٨ ـ

تكلل مسعاي بالنجاح. لم ألتق بأفراح فقط، إنما ظفرت بجسدها. تماما على نحو ما كان يرغب الذئب. في شقة إدريس، أقعى الذئب قربها، فلم ير فيها النعجة المثالية. يقال أن حكيما رأى نعجة فقال: هذه التي بورك فيها وفي خروفها. لكن أفراح أبعد من أن يُبارك فيها، تبدو مندولة، وأبعد من أن تكون النعجة التي أعلا من شأنها الذئب.

ـ أنت تخيفني؟ قالت. ثم أشاحت بوجهها عني.

ـ أريد أن أراك صباحا. قلتُ. أراك حالما تستيقظين. لا شك أنك ستكونين أجمل مما أنت الآن. اشرحي لي كيف يكون وجهك وأنت على وشك أن تستيقظي؟.

ـ أظن أنه سيكون غامضا.

أربكتني إجابتها. يبدو أنها ليست سهلة كما كنت أظن. وجودها في المكتبة ضخم من عقلها.

ـ ماذا تعنين بكلمة غامض؟

- بين بين.

هاهي تلعب بي

ـ تعنين لست جميلة ولا قبيحة؟.

ـ تقريبا.

ـ ها أنت تستعيرين كلمتي.

في الحقيقة لم أكن معها؛ إنما أفكر فيما رأيته في المكتبة وما أراه الآن.

أسأل: أين كل ما رأيته آنذاك؟ وأجيب: خداع الحواس وزيفها. وأتفلسف: لا تخطئ الحواس البشرية دائما، إنما يحدث الخطأ حين يصدر البشر أحكاما على ما تكشفه حواسهم. وأفسر: لم تخدعني عيناي، يكمن الخطأ في الحكم الذي أصدرتُه على ما رأتُه آنذاك.

قلت لنفسي وأنا أسكر بعرق خلطته مع الماء: لا شك في أنها تشعر بالإهانة. عيناها باردتان، وبلا حياة. تدفقت موجة من أصوات الحشرات في الحديقة المجاورة، وتدفق نهر خلف عيني المغمضتين، وظهر لي ما يشبه الجري الرشيق لذئب. لم يكن يركض إنما يطفو، قريبا من الأرض حتى أنه يكاد يلامسها ليقع على نعجة، وتلك آخر صورة طفت في ذهني.

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى استعدت وعيي. ما زلت حيا. وكررت: ما زلت حيا، أنا محظوظ. مستلق أقول ذلك، وإدريس يقرأ هناك.

ـ أشعر أنني مطوي في انحناءة موجة. قلت

لا أعرف. ربما أغلق إدريس الكتاب، لم أره يفعل ذلك، إنما شعرت به.

ـ ليست موجة بحر، إنما موجة معرفية مشعة وشفافة.

ـ استعارات بيضاء. سمعت إدريس يقول من هناك.

ـ أضغط وجهي على كومة رمل حارة.

وعدت أكرر

ـ مازلت حيا. أنا محظوظ، وانفجرت ضاحكا.

جوي مخدر، وأنا كسمكة فيه. أشعلت سيجارة، ذكرتني بأول سيجارة دخنتها. لم يتقبل فمي مذاقها، كررت المزمزة كي أكتسب النكهة، وقد نجحت.

ـ ما شربته مصنوع للحمير، لا للبشر. قلت لإدريس

سمعت من هناك ضحكته المعتادة، بعدها توقف كل شيء كما لو أن أحدا ما أغلق الباب. ثم استيقظت مرهقا. كان إدريس قد أعد الغداء. لم آكل إنما تمددت أتذوق الحياة.

ودعت إدريس على أن ألقاه في الفندق، وسلكت شارع الجمهورية، من بضعة أيام خلت، حينما جئت مع إدريس شاهدت كنيسة، وأنا عائد ألفيت نفسي مأخوذا بزيارتها. دخلت إلى الفناء، وشاهدت مجموعة عند باب الكنيسة، ولم يكن من الممكن أن أزاحمهم لكي أدخل فانتظرت.

أبدو غريبا؛ لا بد أن ذلك ما جعل رجلا يقف إلى جانبي. قال

ـ يشعرون بعدم استحقاقهم الدخول إلى الكنيسة.

كانوا يرفعون أيديهم ويتضرعون. يلتحف النساء بشال أبيض، ويغطين شعورهن.

ـ ألا تشتري؟ سألني بلغة عربية سليمة.

عرض علي أيقونة للسيدة العذراء، وصورا أخرى تبقى في ذاكرتي من شرحه: القديسين التسعة الذين جاؤوا إلى أثيوبيا. عماد أليسوع في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان. الخمس العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات. معجزة الخمر في عرس قانا الجليل. يسوع يهدئ العاصفة. معجزة الخمس خبزات والسمكتين.

الصورة التي تُذهل هي صورة قديس يقال أن الله أعطاه ستة أجنحه. يبدو في الصورة متسلقا جبلا بمساعدة الملاك ميخائيل، وتظهر حية أمرها ميخائيل أن تساعد القديس من غير أن تؤذيه.

ـ ليست صورا أصلية؟ سألته.

ـ صور منسوخة من الكتاب المقدس. قال. يشتريها المترجمون ليهدوها إلى الجنود الفرنسيين، وأحيانا يشتريها الفرنسيون العائدون إلى بلدهم.

ودعته على أمل أن يكون دليلي في الزيارة القادمة.

لو مشيت ما تبقيت شارع الجمهورية فسأمر إلى جوار قاعة السينما، وسأصل إلى الحديقة التي شاهدت فيها المتوسلين. لو عبرت الحديقة فسأجد نفسي أمام فندق منيلك. كنت فارغا وحزينا وسعيدا معا؛ لذلك فضلت أن يطول الطريق.

يمكنني أن أمر على هِبة. هكذا طفت الفكرة فجأة.

سبق لإدريس أن عرفني عليها، وجدناها بالصدفة ونحن نعبر شارع الجمهورية. تعمل مترجمة؛ إنما من اللغة الإنجليزية إلى العربية. صغيرة الحجم وممتلئة. لا تبقى أكثر من لحظة، وليس فيها ما يدعو إلى التركيز. بلا أهمية، وليدة لحظة وتزول معها.

حين التقيناها، كانت تشتري عصير برتقال من كشك عصيرات. قالت: إنها تسكن في الجوار، حيث وقفت أمام الكشك سأنعطف إلى اليسار، وسأعبر شارعا فرعيا، وأعد: بيت، بيتين، وهي في البيت الثالث، في الدور الثاني، الشقة التي إلى اليمين.

فتحت لي الباب، ودعتني إلى الدخول. أحضرت لي كأس ماء، وذهبت إلى غرفة مجاورة. حينئذ سمعت صوتها تتضرع.

ـ ماما. أرجوك لا تفعلي. زيارة عادية. أرجوك ماما.

جرعت كأس الماء، ووضعته على الطاولة، وخرجت.

وأنا أحدث إدريس بما جرى؛ فهمت منه أن أمها لا تكاد تفارقه، ودائما ما تحرج من تراه يتحدث معها.

ـ مسكينة، استسلمت لتخريفات عجوز. ختم إدريس كلامه.

على أي حال، خرجت من هناك، وأنا لا أعرف أأضحك أم أعبس؟ ومن هذا الشعور، ودفعا للضجر رحت أتخبط في الحي ضاحكا كمعتوه، وراكضاً كمخبول. سرت على غير هدى. كان ينبغي أن أعود إلى الفندق لكي أضع حدا لكل ما أعانيه. لكن طاقة تدفعني إلى الأمام، رغبة في أن أسقط أكثر. أين أنا؟ إلى أين أسير؟

لم أكن أعرف. لا شيء تألفه عيناي. وبالتدريج عدت إلى الحياة، لم أفهم كيف دُفعت إلى هذا الحي. وما كان يغطي ذهني تلاشى كقطرة ندى.

مشهد قصير وعابر، وأنا أخرج من الحي. لم يكن جزءا من المشهد العام. قرب أحد الصنادق سمعت صوتا ناعما من داخل الصندقة. نظرت فإذا بي أرى امرأة تخرج رأسها من حلق الباب؛ لتلاعب أحد ما تحت عتبة الصندقة التي كانت مرتفعة نصف متر تقريبا.

حاولت أن أقترب أكثر لأرى هذا الذي تناغيه المرأة. وأنا أتقدم إلى باب الصندقة جذبني صديقي، لكن فضولي كان أقوى من خوفه. حاولت أن أكون خفيفا؛ لذلك سرت على رؤوس أصابعي؛ كي لا أفسد على المرأة أملها وسرورها ورضاها النفسي، وقبل ذلك كي لا أقطع كلماتها التي لم أكن أفهمها، وإن كانت كلماتها تصويرية تجعل العالم يتفتح ويزدهر.

خيل إلي أن من الصعب أن أجد امرأة أسعد منها. لم يكن من الممكن أن أتقدم أكثر من غير أن أثير انتباهها؛ لذلك وقفت أرى، وقد احتجت إلى لحظات كي أتعود على الرؤية، وبعد أن تصفى المنظر تعثرت عيناي في كومة من القماش أسفل عتبة الصندقة.

تحت القماش طفل يرفس برجليه، ويحرك يديه، ويكاد يقفز كلما رأى وجه المرأة. يهدأ عندما تختفي، ثم يعود إلى حركاته حينما

تظهر. كان القماش يغطي بطنه بعد أن زحزحته يداه ورجلاه، فبدا هزيلا إلى درجة أننا يمكن أن نتعثر فيه من غير أن نراه.

عدت إلى الوراء من غير أن أفسد متعتهما، وقد سيطرت علي فكرة بقاء الإنسان ووجوده. لا بد من أن الطفل في سن نمت فيه عنده فكرة بقاء الأشياء واستمرارها، وهذه المرأة لا بد من أن تكون أمه، واختفاؤها ثم ظهورها يجعل الطفل يبتهج؛ لاعتقاده أنها ستتلاشى وتختفي فعلا حينما تغيب، وبالتالي فهو بشعر بالسرور حينما يراها تعود مرة بعد مرة.

بعد أن حكيت لإدريس وأرس قلت

- يعلمنا المشهد أن الحياة تستحق أن تعاش.

- ٩ -

استقبلتنا الكلاب. كائنات هزيلة لم يتبق منها سوى النباح.

- أعتذر، وأنا أعبر بك هذا الطريق. قال أرس.

- يوجد عندنا كلاب. قلت. لا فرق في النوع، إنما في السمن والهزال.

مرت غيمة. ظللتنا ثم انقشعت. أثناء ذلك الحنو المفاجئ من الطبيعة لفح وجهي النسيم. لكن الأشياء لا تبقى، حلّت الشمس؛ لتؤكد انطباعا أن الأشياء تمر وتُنسى.

خلال الساعات التي قضيناها في سوق الذباب، لم أكن أريد أن أفقد شيئاً من غرائبية الأشياء والكائنات التي رأيتها، أو سمعتها، أو شممتها، أو شعرت بها. هناك حيث تعرضت حواسي الخمس إلى كميات هائلة من مثيرات المناظر والأصوات. أحاول أن أحفظ طابعا حسيا عن كل ما رأيته، وسمعته، وشعرت به، خبرة أستعيدها فيما بعد.

هنالك صور وأحداث وأصوات ما زلت أتذكرها. تعرضها ذاكرتي الحسية البصرية أمامي ناعمة وسلسة. مثيرات ملونة: قمصان حمراء وصفراء. فتيات إفريقيات يرتدين ملابسهن بالطريقة التي

يرتديها الفرنسيات. إشارات من عيون ناعسة للجنود الفرنسيين الذين أعجبوهن. بائعون محليون يشاهدون ويعلقون. يدورون إلى الداخل، ثم يعودون لكي يكملوا تعليقاتهم. عجوزان يلعبان لعبة محلية أدواتها من الحصى،غير عابئين بالأرجل التي تبعثر ما فكروا فيه.

فتيات يتحدثن بأعلى أصواتهن؛ ضحكات وتهكمات. لغات مختلطة: عربية وأمهرية وصومالية مطعمة بكلمات فرنسية. حينما يمر الفرنسيون لا يديرون بالا، لكن حينما يسمعون Merci بلكنة إفريقية، لا بد من أن مثل تلك اللكنة تشدهم؛ لذلك يلتفتون.

- يصعب وصف الإحساس الذي أحس به. قلت لأرس

- إحساس مركب. قال.

- أشعر بالخفة كما لو كنت بلا جسد. قال

- لم لا ألمس ذراع المرأة التي تقف إلى جانبي؟. سألته.

- لم تلمسها؟ جنون هو؟ سأل.

- ليس جنونا؛ إنما لأركز على إحساسي الذي سيبقى مؤقتا بعد أن أزيل يدي.

رغبة استدعت هذا الطابع اللاشعوري لهذا القرار المفاجئ.

لمستها فنظرت إلي. أجل حدقتُ فيها بالطريقة التي حدقتْ بها في. لم أنفصل عن اللمسة التي أعدتها. انطباع حسي لذيذ. لو لمست أي شيء فسأعرف ما لم أعرفه عن هذا الذي لمسته. للمرة الثانية نظرت إلي، ومرة ثالثة ولم تتفوه بكلمة. فقط أصبح جسدها الجوهر.

رفعت يدي. تساءلت: من أي شيء يتكون ذلك بقي مؤقتا؟ انبعثت الحياة في مجساتي الوهمية، حتى شعرت أنني جزءا من هسهسات، مجسات توقظ في ما كنت أعرفه ومارسته من قبل. متى؟ لا أعرف. ربما لأن ذلك يرتبط بعلاقة قربى مع شيء ضائع كنت قد عرفته يوما ما.

قد يكون جلدي سجل درجة حرارة السوق، واحتكاكي بآخرين. قد تكون الحرارة مرتفعة، وإحدى ساقي حكت الأخرى بسبب البعوض، إلا أن ذلك لم يدخل مخزن إحساسي. وحده بقي ذراع تلك المرأة كمجس وهمي يهس جلدي. هناك مخزن للإحساس لا تعوضه الكتابة.

ليس من المحتمل أن أسجل كل شيء؛ لأن ذلك مستحيل.

ـ أعتقد أنك تعرف Georges perec. قلت لأرس.

ـ لا. أجاب.

ـ لست مثله هو كاتب كبير ومخاتل، وأنا مبتدئ. حاول أن يكتب وصفا حيا لكل ما حدث في ميدان القديس Sulpice في باريس من يوم ١٨ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٤. كتب طيلة يومين كل ما رآه، وقد كان حصيلة ذلك ٦٠ صفحة يمكن أن نقرأها في ٣٠ دقيقة.

ـ ما الذي تعتقد لو أنه اختار سوق الذباب؟ سألني

ـ من المستحيل حقا أن تخبر عن كل ما حدث في نقطة واحدة من العالم. أجبته.

ومع ما قلته لأرس سأنقذ هذا الحدث من النسيان.

حنفية لبيع الماء: اشرب حتى تروى مقابل فرنك جيبوتي. خلف الحنفية تجلس امرأة في هيئة محلية؛ الشعر المسرح إلى الخلف، والقميص الشفاف الذي يظهر جلدها المشدود على العظم، والشلحة الداكنة التي رفعتها إلى منتصف فخذها.

ليس بعيدا عن المرأة والحنفية، فتاة قادمة تضج بالحياة، تجنبها الرجال، لكنهم يراقبونها بأطراف أعينهم، متواطئين على أن يدعوها تكون، بينما هي كالطبيبة تعرف بالضبط أين موقع ألمهم فتضغط عليه.

ظلت صورتها حية في ذاكرتي. أسرتني رقتها ورغبتها.

ـ رقة طفلة، ورغبة أنثى بالغة. قلت لأرس

عدت إلى المكان ذاته.

ـ كنت أعرف أنك ستعود. قالت المرأة التي تبيع الماء:

ـ كيف عَرَفْتِ؟ سألتها

ـ يوجد في النساء حاسة لا تسمح إلا بمعرفة ما يريده الرجال. أجابت

ـ ما اسمها؟ سألت

ـ إسراء؟.

حينما لاحظت استغرابي قالت

ـ كل بنت تولد ليلة الإسراء والمعراج يسمونها إسراء.

وأنا أستقصي منها عثرت على معلومات قليلة: أبوها يمني وأمها

إثيوبية. حين ولدت وتأكد اليمني أنها أنثى، أهمل الإثيوبية وابنتها وتركهما لمصيرهما المجهول.

لم أرها مرة أخرى، وحينما ظننت أنني نسيتها طفت مرة أخرى. حديث عابر بين ياسمين وأرس تبرهن فيه على أن الزواج قسمة ونصيب. فتاة اسمها إسراء عاشت يتيمة وتزوجت بيمني يسكن باريس، الأمر الذي لم تكن تحلم به قط.

والحكاية أن إسراء حضرت حفلا، صور الحفل وأرسل إلى فرنسا لكي يراه أخو العروس. رآها في الفيلم؛ تقف في الهامش، لكنها جذبته. أوعز إلى أمه لكي تخطبها، ثم أرسل وكالة شرعية إلى أخيه. أقيم فرحها في مطار جيبوتي، والعريس ينتظر في مطار آخر على بعد آلاف الأميال، ورحلت إلى من ينتظرها في مكان لم تره من قبل.

ـ ما أكثر الأشياء التي تحب سردها؟ قال أرس.

ـ الأشياء التي سماها ستاندال: الأشياء الحقيرة. قال إدريس.

ـ الأشياء الحقيرة هي الحياة. قلتُ.

ـ معك حق. قال أرس. التفكير في العالم أمر ضروري.

- ١٠ -

أظن أنني نمت، أو على وشك النوم؛ حينما سمعت أزيز باب الغرفة عند مستوى خفي ومشوّش. ما رأيته هو نور الممر عبر الباب الموارب. ياسمين. قلتُ. ثم شعرت بارتباك. يمكن ألا تكون هي. فكرتُ. ثم شعرت بالخوف. ربما يكون منظف الغرف الذي لا تعرف له موعدا. ثم هدأت. من الأفضل أن أتظاهر بالنوم. لكن؛ لا. ربما يكون لصا، ومن الأفضل أن أستعد.

في اللحظة التي أردت فيها إشعال النور.

ـ لو سمحت، من دون ضوء. قالت ياسمين.

يبدو أنها واقفة، فلم أسمع ما يشير إلى أنها سارت نحوي، أو أنها جلست.

ـ كيف كان يومك؟ سألتها.

ـ أي يوم؟ ردت.

ـ اليوم. حدثيني. قلت.

ـ أتريد أن نتحدث عن اليوم؟ سألت.

ـ نعم. أو أي يوم. المهم تحدثينني. قلت.

لا أعرف السبب الذي جعلني أسدل الستار. لو لم أفعل قبل أن أستلقي؛ لرأيتها على ضوء مصباح الشارع القريب من النافذة. الضوء الخافت سيساعد ذاكرتي على أن يستحضر ما تبقى منها بعد أن تغيرت. أصبحت تلبس ملابس ضيقة، يطغى عليها اللون الأسود، يتخلله مربعات بيضاء، وعلامات زهرية. علقت حلقة في سرتها، ولبست أساور، وأحاطت عينيها بهالات من الكحل. تضع نظارات سوداء ذات أطراف عريضة، وماكياجا، لا تعرف معه ما إذا كانت أنثى أو ذكر.

ـ سنتحدث عن تلك الليلة. قالت.

ـ ليلة المطار.

قلتُ ذلك لكي أبعدها عن تلك الليلة. من يعرف! لو منحتها السعادة التي تريد لربما بقيت مثلما هي. لو تحمستُ لها. أرادت أن تقرأ الروايات. تحب الرسم والرقص. لم أستمع إليها تلك الليلة. لم أكن أنا، إنما الذئب. الإنسان ذئب حينما يروض الآخرين؛ حينما يروضهم فهو لا يعلمهم؛ إنما يجعلهم يتمسكون بسلوك يفيده هو. الآخرون نعاج. لا يعني الترويض بنمو النعجة الخاص، فالنعجة المروضة ليست أكثر نموا من النعاج الأخريات.

ـ مازلت تتذكر المطار؟ سألت.

ـ لا يمكن أن أنسى. قلتُ. لكن، لم لا تأتين إلى جانبي.

أردت أن أفسح لها مكانا، فتحركت.

ـ لا تنهض. قالت. ولا تشعل النور.

ـ لم؟

ـ أريد أن نتحدث في الظلام.

ـ الظلام يحيي الرغبات الهامدة. قلت لكي أرطب الموقف.

ـ تفكر في الرغبة؟ سألت :

هناك نغمة في صوتها غير مريحة. شيء ما يشبه الذباب الذي يقف على أنفك. لا يؤلمك ولا يؤذيك، لكنه يزعجك. حصاة دخلت بين راحة قدمك وحذائك ولم ترحك.

ـ تتذكر الرجل الذي قال: نعجة تغنج، خلقت للذئب. سألت.

ـ ثم ماذا؟ قلتُ؛ لكي أهرب من الإجابة.

ـ أنت تعرف ما الذي فعله الذئب بالنعجة.

أردت أن أستشهد ببيت من الشعر، لم يتيسر لي إلا الشطر الثاني

ـ كذئب بين أعتى نعجتين.

ـ أنسيت. سألتْ. كنت تدير رأسك؛ لتبحث عن نعجة.

ـ ليس بهذا المعنى. قلتُ. ربما شعوري بالخفة جعلني أفعل ذلك.

ـ منذ رأيتك عرفت أنك تريدني. قالتْ. سرت في إثري، واخترتني من بين كل الواقفات لكي تقف إلى جانبي. حينما وقفت اقتربت مني. راقبتَني بعين غير عينيك. لا أعرف أين تقع تلك العين. المهم أنها عين لا تبصر؛ إنما تخترق.

ـ شعرت بك آنذاك. قلت.

ـ حتى أنا. لكن لم أشعر بروحك، إنما بجسدك. قالت.

ـ تعاليْ. أو على الأقل اقعدي.

ـ أعرف كيف أجد راحتي. قالت. أريد فقط أن أعرف الحقيقة.

تمنيت أن تأتي إليّ، وتمنيت أكثر من أن تكون إلى جانبي: أن أمتزج بها؛ في كل خلية. أن أنغرس فيها؛ في كل صدع. أن أكون في قلبها؛ في كل عاطفة. أن أكون في فكرها؛ في كل خاطرة. أن أتغلغل فيها؛ في كل خلية.

ـ أي حقيقة؟ سألتها.

ـ لم تكن تلك حقيقتك. أأكون مخطئة؟.

قبل لحظة أريدها، أما الآن فلا. يا لتعقيدات العواطف البشرية!

ـ لا أعرف. قلت.

ـ اعرف نفسك. قالت.

ـ نكتة! ذلك القول: اعرف نفسك. قلت.

ـ بلى تعرف. قالت مصرة. لا تخبئ ذاتك.

ـ لا أعرف عم تتحدثين.

ـ إن خبأتها فستنسى أين خبأتها. قالت.

أتكون هذه ياسمين؟! عندها الرد المناسب لكل ما أقوله. أتكون تعرف أكثر مما تقرأ؟! لا أستطيع أن أقاوم شكوكي تجاه ما سمعت.

ـ أغمض عينيك لكي تشعر بهويتك. قالت. نحن مخلوقون في الظلمة.

تغلب فضولي على خوفي فأشعلت النور. الغرفة مضاءة، ولا أحد.

أأنا أحلم؟! لا يمكن. أأنا مستيقظ؟! أكيد. لكن لا يوجد أحد تحدثت معه. ولا يوجد أي علامة يقينية وقاطعة أستطيع أن أميز بها ما إذا كنت نائما أو يقظا.

أفكار تبعث على الجنون؛ لذلك فضلت أن أهبط إلى أرس.

ـ ما بك؟ سألته.

ـ الفلسطيني طرد ياسمين. أجاب.

ـ تحدثت معك؟ سألني.

ـ لا.

ـ قالت: إنها تحدثت معك.

ـ متى؟

ـ لا أعرف. ما قالته لي: إنها نصحتك بألا تخبئ ذاتك. وأنك لو خبأتها فستضيع مكانها. وأن تلك الليلة ليست هي حقيقتك.

ـ لا أفهم عما تتحدث.

ـ ليس شرطا أن تفهم. ذلك ما قالته لي. عليك أن تشعر فقط.

ـ أهي قالت لك ذلك؟ سألتُه.

ـ نعم.

ـ أأنا أحلم؟ سألتُه؛ وأنا في قمة الذهول.

ـ ربما. ألم تسمع عن ذلك الحكيم؟

ـ أي حكيم؟.

ـ ذلك الذي حلم يوما بأنه فراشة، وحينما استيقظ لم يعد يعرف ما إذا كان فراشة تحلم بأنها هو أم هو الذي يحلم بأنه فراشة.

ـ هل يوجد عالم آخر؟.

ـ ربما. أجاب.

ـ ما الذي تقصده بربما؟

ـ عالم نبدو فيه لمن هم موجودون في ذلك العالم.

ـ لم أفهم. قلت

ـ من يعرف؟! قال أرس. ربما يوجد عالم نسبته إلى الواقع كنسبة اليقظة إلى المنام. يستطيع ساكنوه أن يشاهدونا، ويتحدثوا معنا، بينما نحن عاجزون عن مشاهدتهم. عالم يشبه مشاهدة الأشخاص في الصور؛ لكن بشكل معكوس. هم يروننا بينما يستحيل علينا أن نراهم.

ـ لا يوجد لدي أي تفسير. قلت.

ـ أما أنا فلدي تفسير. قال أرس. أعراض انهيار العلاقة. يُسمى زملة القلب المحطم broken heart syndrome. ياسمين اشتكت آلام الصدر، وضيق تنفس، وآلام المعدة، ودوار، وغثيان، وشعور بالإنهاك والتعب، وفقدان الشهية، ونوبات بكاء، ومشاعر وحدة وانكسار.

ـ ١١ ـ

ـ إنها المرة الأولى التي يسقط فيها المطر. قال إدريس. لنحتفِ بالله والطبيعة.

في الواقع لم يكن مطرا ذلك الذي سقط، إنما ينابيع السماء التي تفجرت. دقائق حتى كدنا نغرق، ثم توقف كل شيء كما لو أنك أغلقت صنبورا.

لقد أراد الله أن يكون المطر فرحا. من ينظر إلى أفخاذ النساء، وربلاتهن، سيعرف أن الله خلقها لنراها بعد المطر؛ آنذاك؛ حينما يرفعن ملابسهن. نحن عبثنا. عملنا من الجسد قضية؛ صنعنا الأقمشة واعتقدنا أن تغطيته هو الحل. لا شيء يسعد أكثر من فخذ مكشوف يخب في الماء، ولا ألذ من أن ترى أقداما تتحسس عمق الماء. لا تعرف ما إذا كانت ستقفز أم سترفع.

كنا قد اتفقنا أن نذهب إلى حانة قريبة من فندق منيلك. سأذهب ثم سيلحقني إدريس بعد أن يغير ثيابه. دلفت إليها من المدخل المقابل للخطوط الفرنسية. المدخل الأخر مغلق؛ لا تصريف؛ لذلك فالشارع مملوء بالمياه.

ـ يحيى. تعال أريدك. ناداني صورت رجل.

حتى تلك اللحظة لم أكتشف مكان الصوت الذي جاء فجأة.

ـ لو سمحت. كرر الصوت.

تلاقت نظراتنا؛ من غير أن يظهر على وجهه أي تعبير.

تحت تأثير أنه يعرف اسمي اتجهت إليه. لو لم يناديني باسمي ما ذهبت.

ـ أنت لا تعرف عني شيئاً. قال. أما أنا فأعرفك. أنا قائد، ويمكنك أن تدعوني أبو سامر. لا شك أن أرس حدثك عني. أنا مستثمر فندق علي صبيح. لدي ساعة لأتحدث معك. سأتحدث عن السبب الذي جعلني لا أهتم حينما قالت ياسمين: أنا قضيتك الفلسطينية. أعرف أنها قالت لك. النساء لا يحفظن السر، حتى من يدعي منهن ذلك.

ـ تعرف عزيزي؛ لا يوجد نظير لظاهرة إسرائيل. قال.

ـ لم تسأل لماذا؟.

ـ أنتظر أن تكمل. قلت.

ـ لا بأس. اعتقدت أنك سكرت. إسرائيل يا صديقي تعكف على أن تألف الأرض التي احتلتها.

ـ ماذا تعني؟.

قال وأظنه يقتبس ما قاله

ـ هل سمعت بـ «يديعات هاآرتس»؟.

ـ لا.

ـ عبارة عبرية يظن البعض أنها مأخوذة من كلمة ألمانية. على كل حال تعني الكلمة «معرفة الأرض»؛ أي أن الدور الأهم لمعرفة الأرض لعلم الآثار. لو بسطت لك معنى «معرفة الأرض» لقلت لك: إنها تعني أن أرض إسرائيل الحالية تتحقق بفضل علم الآثار.

ـ لا يوجد عندي فكرة عما تقول، ومع ذلك سأصدقك. قلت.

ـ عليك أن تصدقني. علم الآثار مهد الطريق معرفيا لكي تكتمل هوية إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ م. شيء لا يصدق، يمكن رؤيته في السينما. قبور وأحجار وألواح ورفات عظام تطمس هوية شعب لتبني هوية شعب آخر.

أضاف بحركة مسرحية

ـ هل سبق أن رأيت تقريرا إخباريا من غير أن ترى بلدوزرا؟. لا أظن. يرمز البلدوزر إلى الحفريات، إلى علم الآثار. ومع ذلك الناس لا يفهمون.

أخرج منديلا ليجفف العرق. في الحقيقة لم يكن يتحدث إنما يحاضر

ـ تعيد إسرائيل صياغة الأرض لتعيد لها جانبها الذي له دلالته ومعناه.

ـ ما الجانب الذي له دلالته؟ سألته.

ـ نفي وطمس فلسطين العربية. تشبه الأرض الرجل المريض الذي يخبئ مرضه. لا يفعل ذلك عمدا، إنما جزء من آلية الدفاع عن نفسه. الأرض تكذب أيضاً، يجب أن نكتشف حقيقتها.

انفعل ودق الطاولة

ـ يجب أن ندمر المتاحف. قطعة الأثر التي تدخل متحفا تعني أنها ماتت. نريد أن تبقى الأحجار والألواح والعظام حية في بيئة إنسانية مستمرة.

إنه يبكي ويغني

الأرض بتتكلم عربي حتى البور

بنت الساقية والطنبور

حتى في بطون الأرض قبور

الأرض... الأرض... الأرض

الأرض بتتكلم عربي

بدأ يهمس بالكلمات بصوت متهدج. وسرعان ما تغيرت نبرة صوته. يغني حتى أنه صدق كلمات الأغنية التي يغنيها. من الطبيعي أن تجري الأمور على هذا النحو، فالقصيدة كتبها فؤاد حداد للأرض التي فقدها.

لم أكن قارا على هذا الاختبار الشاق، فوق طاقتي واحتمالي. لست عروبيا، لكن موسيقاها وصوت سيد مكاوي طنا في ذاكرتي. فتح عينيه وداهمني دمعها. تبادلنا النظرات فبكيت.

غنى ثم صمت. وقد اعتقدت أنه يجمع أفكاره.

ـ حينما ماتت فلسطين؛ عاشت في موتها. صارت عندنا الوطن.

من يقول الآن في العالم العربي وطني بمعنى الكلمة العميق سوانا نحن الفلسطينيين؟ لا أحد. وطني كلمة تضرع وُلدت مع الاحتلال. لو لم تُحتل فلسطين لما شعرنا بمعنى وطن. حتى لو اختلفنا؛ فتحت خلافاتنا وفوقها وحدة فلسطين ركيزتها. لا أحد يريد أن يرحل الاحتلال؛ لأن ركيزتنا ستنهار.

توقف؛ كما لو أنه يتذوق الكلام الذي قاله.

ـ لم لا نكون رجالا ونعترف؟ الأفضل ألا تُحل قضيتنا. فغير ما يحصل عليه قادة العمل الوطني من الهبات والمساعدات، هناك الأدب. يُنفى الشعب ليتحول إلى شعراء وقاصين وروائين. المنفى هو الطريق إلى الأدب؛ لذلك ما أكثر شعراء وقصاصي وروائي القضية!!

راقني كلامه؛ لذلك تركته. إذا كان يرى بهذه الطريقة فليفعل.

ـ لا أتذكر الآن من قال: ما ينتقل بالوراثة في خلية النحل هو روح النحل التقاليد النحْلية. فن التعسيل، وصناعة قرص العسل. روح جيلنا الأول. تقاليد الجيل الفلسطيني الأول. قرص عسله. الأرض التي باعها. كذب علينا؛ فاليهود لا يعتمدون على الحق التاريخي؛ إنما يعتمدون على حق ملموس هو شراء الأرض. أحب الجيل الأول قرص العسل، لذلك لم يثوروا، حتى في ١٩٣٦ لم يكن ثورة إنما احتجاج.

توقف ليلتقط أنفاسه. جرع كأسه دفعة واحدة. ثم بدا كأنه يرتب الكلام ليبدأ بالأهم.

- يبدو أنني سكرت. لو لم أشرب لما وصلت إلى قاع الأمور وقرارها. يقولون قادة العمل الوطني. نكتة. هؤلاء ذكور النحل؛ لا شيء سوى جهازه التناسلي الكبير، والأجزاء الماصة من فمه. فلسطين هي الملكة. لا شيء سوى مبيضيها الكبيرين. الشعب هو الشغالات: يفرزن، ويغذين. مربيات، وعاملات نظافة.

من الواضح أنه قال ما يريحه. أزاح عبئاً عن كاهله؛ لأنه ابتسم. في الحقيقة نحن لا نعرف ما يحدث للشخص حينما يتكلم، لاسيما تلك اللحظات التي يفضفض فيها. ليس الناس سواء في هذا. هناك استثناء للأفضل وللأسوأ، ومن الواضح أنه الأفضل.

أعتقد أنه يعرف أنني سمعت أنه مصاب بالسيدا SIDA. لا يمكن أن أجزم. حينما لا يعرف الناس يختلقون الحكايات، ويتناقلون الإشاعات. القيل والقال.

لم يكن يسأل لكي أجيب؛ إنما يفكر بصوت مسموع، وقد جاريته في ذلك.

- أرس شخص مثقف. قال

- نعم. قلتُ. وشخص مهذب.

- إدريس شاعر. قال

- بالفعل. قلت.

ـ ياسمين فاتنة. قال.

ـ أنثى. قلت.

ـ ما رأيك في كأسين أخريين؟ سأل.

ـ نخب الصحبة. أجبت.

ـ تلك من ستأتي بها. وأشار إلى نادلة. أحب أن أشرب من يد أنثى.

ـ معك حق. قلت.

ـ أنت تعرف أن ياسمين تحبك. لم تلف وتدور؟.

ـ أنا!.

ـ نعم. أنت من سيحصل عليها.

جاء النادل وهمس في أذنه.

ـ هاهو إدريس. وأشار إلى المدخل. ليس الكأس لمن تُصب، إنما لمن يشربها.

تبادلا احتراما حقيقيا. لا ينبع من القلب إنما من اللطف. من طأطأة الرأس، من هذه القاعدة البسيطة: الكلمات غير ضرورية لكي نحترم بعضنا البعض. ثم غادر.

ـ هل حدثك عن فلسطين؟ سألني إدريس.

ـ نعم.

ـ ظننت ذلك.

ـ هل حدثك أنت عنها؟.

ـ نعم. هل تعتقد أنه حدث أرس؟

ـ لا أعرف قلت.

بعد أن غادرنا الحانة بقي قائد في ذاكرتي، ليس بسبب لطفه؛ إنما للتناقض الذي يعيشه. يستحق هذا الإنسان البقاء؛ لذلك تمنيت أن يكون مرضه إشاعة.

- ١٢ -

منذ اليوم الذي اكتشفت فيه مكتبة الملحق الثقافي الليبي، وأنا أقرأ ما تُرجم من أعمال ستاندال، فلوبير، بلزاك، هوجو، ديكنز. قراءة هؤلاء بعد قراءة ديستويفسكي نقلتني من الأسرار الإنسانية كالخبال والفجور والقدسية والجنون إلى الأسرار الاجتماعية.

لا أعرف لم شعرت وأنا أقرأ لهم أن الحبْكة تخلق القيد، ولا يكون لما كتبوه أهمية إلا بالقدر الذي يلتزمون به. ماذا يعني هذا المفهوم الغامض؟ في أفضل تأويل له يعني (الحَبْكة) أي أن تُرتب الأحداث والأفعال؛ لهذا السبب يعرض أرسطو الحبكة بوصفها تكملة للفعل (يَسْرُد).

هناك ما قبل السرد أي الأحداث والأفعال كما تجري في الحياة. وهناك ما بعد السرد؛ أي بعد أن تُنظم الأحداث والأفعال (تُحْبك).

انطلت الحيلة، وصدّق الكتّاب أرسطو، وشرعوا يسردون، ويتكلفون الربط المنطقي الصارم بين الأحداث والأفعال، واقتضى ذلك منهم ضمنا أن يكونوا مستبدين، وأن يمتثلوا إلى مفهوم تجريدي بشأن التنظيم والترتيب، حتى عندما لا يكون الأمر كذلك، لكن

سرعان ما ينكشف سردهم القائم على الحبكة؛ حين يتكئ على تأويل سطحي لتعقيدات الحياة.

في مكتبة الملحق الليبي أعدت قراءة كتاب دينكشوت فوجدتني أمام مفهوم أرسطو المضلل، ولكن بشكل معكوس. ملحمة أرسطو تحبك الأفعال والأحداث، وملحمة سرفانتس تحبك الحياة؛ لتبرهن على السرد القائم على (الحَبْكة)؛ أي تبرهن على رواية الفروسية.

تساءلت: فيما لو كتبت؛ ماذا عليّ أن أحبك أو لا أحبك؟

لن أحبُك. لذلك لن أُعنى بـ (الحَبْكة)، وسأتجاهلها عن عمد. سأكتب كتابا أقرب إلى الحياة. من دون منطق التعاقب. فعلى العكس من أرسطو، ومن سرفانتس؛ أعتقد أن لا حاجة إلى الحبكة. ولا يوجد حاجة إلى أن تتحول الحياة إلى بنية جديدة.

هناك توافق وانسجام لكن من غير أي حبكة. من غير أي منطق. الحياة تخلو من المنطق. لا تخضع له. فلماذا يراد استخلاص معناها بمنطق؟ ثم ما المنطق؟ ما المعنى؟.

في هذه الفترة كان عقلي منعزلا، لم أكن أناقش أفكاري مع أحد. لم يعد إدريس يتحدث معي؛ أو لأقل لم نعد نناقش ما نقرؤه. كان قد حصل على ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية، فاعتكف على قراءتها. لا أعرف الفرنسية كي أترجم، لكن يبدو أنها تتعلق بالموت.

عرفت هذا عرضاً أثناء حديث عابر. قال

ـ لا يوجد الموت كشيء مطلق وكلي. وأنا أقرأ القرآن الكريم حاولت أن أتخيل الموت. لم يكن هناك شكل؛ إنما فراغ. أعرف أن الخيال لا يمكن أن يبني شكلا ليس له أساس في الواقع، ومع ذلك أنا أحاول. أقرأ وأهمش، وإذا ما فشلت فسأكون أكدت فرضيتي: الشكل الوحيد للموت هو أن نموت.

من المحتمل أن إدريس صنع شكلا للموت. الله وحده هو الذي يعلم.

غيّرته تلك النسخة من المصحف. لم يعد إدريس؛ ذلك الذي يؤمن بالعقل، إنما إدريس الذي يؤمن بالعاطفة. منح نفسه لها، ولم يبحث عن توضيح. اقتنع أن العقل يترك فراغا في الروح. لم يعد فولتير؛ ولا روسو؛ إنما من يتصور أنه سيدرك العالم بالحدس.

لم يُجن، لكنه هزُل، يتمدد كهيكل عظمي، ويتيبس إلى الحد الذي لا يستطيع أن يهش الذباب عن جسمه.

ـ سيموت من سوء التغذية. قال لي أرس. إنه لا يشرب إلا الحليب.

شككنا ما إذا كان سيعيش. لا يمكن لمن يعرفه من قبل أن يصدق ما أصبح عليه.

ـ إنه ينهار. قلت لأرس؛ كي أوجز حالته.

لا يُحب إنما يُعتاد. نزق ومتهور وحاد ومغرور. يفضل من يتطابق معه، ولا يطيق من يعارضه. لا يضحك إلا نادرا، وإذا ما ضحك تشعر بأنها ضحكة من نجح في تدبير مؤامرة.

ـ علينا أن نتحمله. قال أرس. نحن مدعوون إلى أن نفهمه، وإلى أن نتعاطف معه في مثل هذه الظروف التي يعيشها.

لم يحدث ذلك؛ بدا من المستحيل أن نفهمه أو نتعاطف معه، حتى وهو يفكر أنه ليس محقا، بقي على اعتقاده أننا نحسده. وَهِم وتراخى لوهمه. استسلم كالأرنب الذي يموت في داخله عندما تطبق عليه أنياب الثعلب. ثمة أمر يجري، أمر لا يمكنه ذكره. عندي شك؛ إذ أن ثمة أسرارا لا يخبر بها الأحياء أحدا، ربما ما حدث له يتعلق بأمور لا يمكن أن يُفضى بها إلى الآخرين.

تجاوزت كل شيء إلا هذا الحوار الذي دار بيننا.

ـ أنا حر. قال لي بصوت عال. حر يعني أن أفعل ما أشاء، ليس من حق أحد أن يحاسبني، وإذا كنت قد زرتني من أجل أن تراقبني فإن ذلك ليس من حقك، سأفعل ما أشاء، أفعل وكفى، لست محتاجا إلى النصائح، وليس مطلوبا مني أن أسير وفق ما لا أريد، لقد قررت من هذه اللحظة أن أستجيب لدوافعي الداخلية وحدها.

اتهمني بأنني أتصرف معه كما لو كنت وصيا عليه، أباه أو أخاه الأكبر، وشرع يستقصي تفاصيل حكاياتي معه، لمح أكثر مكن مرة إلى حكايات لم أكن أملك عنها أي تصور.

ـ ما فعلته معي يمثل ندبة في وجهي من الصعب محوها.

أخذني إلى مرآة مسندة إلى الجدار.

ـ وضعتها هنا كي أبصق على وجهي كلما تذكرتك. قال أثناء حديثه لم يكن يخفي تودده إلى حشرات تغص بها الشقة.

ـ إنك حشرة. قال لي

رتب على ظهري كي لا أغضب.

ـ الحشرة أفضل منك. عاد إلى القول.

فجأة تحدث عن الخلود

ـ لكل شيء خلوده. قال. كل منا يتوق إلى الخلود لكن الفراشة ستموت، هل تشعر بمسؤوليتك عن موتها؟

لم أكن أعرف عن أي فراشة يتحدث.

ـ هل أنت خائف؟ سألني

ـ لا. أجبت

ـ أنت لست خائفا. قال. لكن ألا تشعر بالوحدة الكاملة؟ ألا تشعر بأنك كأرنب أعزل؟ أنصت إلى دقات قلبك، إلى طنين أذنيك، ألا تشعر بأنك على الحافة؟ أنا دائما هكذا، جبان مثلك لكنني أتمسك بآخر أمل، أبحث عن موت هادئ، لأتحدث معك بصراحة، لقد كرهت فكرة الموت لكن إن كنت سأموت فأريد أن يتم ذلك من غير آلام.

شعرت برضا استثنائي فقد رأيته ضعيفا ومتهالكا وهشا.

ـ سنموت هنا معا موتا ألطف من نسمة. قال. سنلف ويذهب انبساطنا ثم نتلاشى ونضمحل لندخل في ظلمة كلية من غير أي صور أو رؤى. إنني أشعر بالتعاطف معك وأنت تدخل إلى ظلمتك النهائية التي أحملها أنا في أعماقي، أتعاطف معك لأن لا أحد سيؤبنك.

لم أفهم أي شيء، وقد اعتقدت أنه يهذي.

ـ أنا حزين. قال. لأن نهايتك ذكرتني بنهايتي، ولأن قدرك ذكرني بقدري، لكن ما يطمئنني أنني أنا وأنت سنستأنف حياتنا مرة أخرى، ولسوف نتعجب معا أننا كنا في عالم واحد.

حاول الوقوف لكنه فقد الاتزان. نظر إلي وظللنا ننظر إلى بعضنا عدة دقائق.

رأيته بعد ذلك مرة واحدة سأتحدث عنها في الفصل الثالث عشر. والآن أجدني أقول: إنه جاء إلى شرق إفريقيا ليبحث عن شيء ما، شيء لا يبنى على العقل، ولا على الأفكار الإنسانية. لست متأكدا من أنه وجد ما يبحث عنه؛ لأن شرق إفريقيا لا تعطي الحلول.

ـ ١٣ ـ

دلفنا إلى مقهى

ـ مقهى البالوعة. قال أرس.

ـ ما هذا الاسم؟! سألته.

ـ لست أنا من سماه. قال أرس. إنما الناس.

دخلت الفتاة ذات الشعر المجعد، وجلست. لم يكن معها أحد، ولأن أرس ذهب يبحث عن السائق الذي سيحمله رسالة إلى أثيوبيا، فقد وددت لو أن بوسعي أن أتحدث معها. لكنها كانت قد جلست عند مدخل المقهى؛ بحيث يمكنها أن تخرج متى ما أرادت. خمنت هذا، واعتقدت أنها تنتظر أحدا ما، لذلك طردت فكرة أن أتحدث معها، واستعضت عن ذلك بتأملها.

كانت الهجين في أعلى مستوياته. حينما يُنسى العرق، ولا يبقى منه إلا ما يشير إليه لكي يكون خالدا. تلك هي الفتاة التي امتزج فيها الإفريقي والأوربي. ولدت هي لكي تتحدى العرقين بجرأة ومن غير أي تبصر. محط الرغبة، والمثل الأعلى لما يمكن أن يُبلغ. حماسة الرجال وغيرة النساء. أنثى فذة ونادرة، ميّزتها الطبيعة، ورفعتها إلى ذرى محفوفة بالأخطار.

كيف أصفها!! سمكة تسبح في تيار. قطرة ندى فوق ورقة. استعارة في قصيدة. سجع في نثر. لم تكن فتاة عادية؛ تكون أي شيء إلا أن تكون كذلك. أنا قلت أقصى ما أعرف: سمكة، قطرة، استعارة، سجع. يمكنك أنت أن تتخيل، مادام لك القدرة على أن تتخيل ما تشتهي.

من يعرف ما إذا كان سينتهي حَدَثٌ بدأ من المنتصف؟! كل ما هناك فتاة يبدو أنها تنتظر. من الأفضل أن يأتي مَن تنتظره، فبدون ذلك لن ينتهي الحدث. لو أن حدثا ما لم يحدث بسبب التأخر في التنفيذ فلا بد أن الله سيكون مندهشا؛ لأن كُنْ لم تكُن. لكن كُنْ ستكون، ولا لزوم لـ لو، ولا لـ لَوْ أنّ. . فالحياة لا تعرف لو إنما تعرف لكن.

لا علاقة لهذا بما يتحدثون عن لو التي تفتح عمل الشيطان؛ إنما له علاقة بمجيء اللحظة. هناك لحظة في حياة الأنثى، تجهل وجودها. الله وحده الذي يعلم ذلك، لذلك لا تستطيع الأنثى أن تقول: إن تلك اللحظة موجودة؛ لأنها مطروحة في زاوية من زوايا الغيب. لحظة منسية هناك، إن لم تكن لحظة منزوعة من شكل الزمن العام. تحين تلك اللحظة فتنهار الأنثى.

الآن وأنا أتربص بتلك اللحظة، فإن بوسعي أن أتركها تحين، وسأبحث عن السبب الذي جعل الناس يطلقون على هذا المقهى مقهى البالوعة. تخيل أنك تعبر زقاقا لتدلف إلى مقهى. وحدهم سائقو الشاحنات المتجهة إلى أثيوبيا يعرفون كيف يمكن شاحنة أن

تعود إلى الخلف في مثل هذا الزقاق. المقهى مزدحم، ويتجمهر فيه سائقو الشاحنات وسكارى سوق الذباب. إذا كنت حساسا من رائحة الأجساد فلا تأتي إلى هنا. يظل الرجال الذين يأتون إلى هنا سكارى طوال الوقت بعرق محلي، وبين حين وآخر يُعلن عن مشروبات أخرى محلية.

يسمى البنات اللاتي يأتين إلى هنا «بنات السوق». نحيلات؛ لا لأنهن يحافظن على رشاقتهن، إنما في الغالب بسبب سوء التغذية. ومع ذلك هناك إيماءات وحركات جسدية وعواطف مشبوبة. يأتين إلى هنا من أجل العشاق. كل واحدة منهن مع عشيقها. فبعد أن تكون قد أمضت الليل مع الغرباء، ومن الصباح إلى ما بعد الظهر في النوم، يحين وقت العصر لكي تقابل عشيقها. لا أحد يتصور أن مثل هذا قد يحدث؛ لكن في هذا المقهى يحدث أن تدفع الوحشة النساء والرجال الصوماليون والأريتيريون والأثيوبيون نحو بعضهم البعض. يضم العشيق جسد عشيقته، وما على هؤلاء البنات النحيلات إلا أن يرمين وراء ظهورهن همومهن التي لا عد لها ولا حصر.

تسخّن حرارة المقهى الأجساد، ومع السخونة تستحيل الأجساد إلى حريق. عندئذ يتحسس كل واحد منهم ظهر الأخر الذي يشبه جمرة تتقد بدون لهب. يبدأ التحسس رقيقا، ثم يتطور ليكون عصرا، ثم إلى أن يكون هصرا، فيترك كل منهما جسد الآخر يغوص في المتعة التي تغمره.

تأخر أرس، ولم يأت الرجل الذي تنتظره الفتاة ذات الشعر

المجعد. تعثرت في فكرة أن أكون أنا هو من تنتظره. لم أقاوم جاذبية الفكرة. نوع من النداء الداخلي، نداء غريزي. ذكرى الانتظار الأول؛ حينما انتظرت حواء آدم في مكان ما من هذا العالم الأرضي.

أهذا هو ما يبرر فرحتنا ونحن نلتقي من ننتظره؟ أهو ما برر فرح الفتاة ذات الشعر المجعد حينما جلست على الكرسي الذي يقابلها؟ ربما، وهو أمر غريب حينما أفكر فيه الآن.

خرجنا من الزقاق. نستطيع أن نتوغل في الحي، سنغذ السير، ولن يمضي وقت طويل حتى نصل إلى الكورنيش. سنعبر لسانا من الإسفلت، وسنتجاوز مطعما للسمك لأنه لا يقدم طالبات، فالوقت قريب من المغرب، وسنصعد إلى مقهى في الدور الثاني.

حاصرتنا الموسيقى الهادئة، وشعرنا أننا أنيقون ورقيقو الشعور.

لا بأس بالطقوس. راقبتْ البحر، وقوارب الصيد والسفينة القادمة من مدينة أبخ، والكوانترات التي ستُحمل إلى إثيوبيا. بينما راقبتُ يدها المركونة، وشعرها الرخو الذي لم يعد مجعدا. الشفتين، والوجنتين والصدر، وحرارة الأنفاس. صغيرة، وفي مقتبل العمر، في السن التي تبدو فيها الأحاسيس مضطربة، والتجربة الجديدة؛ حتى تلك اللاإنسانية تبدو ممتلئة بالحياة.

كانت قد ولدت في زنجبار، من أب فرنسي وأم كينية. عاشت في عدة دول قبل أن تصل إلى هنا، فأبوها من المستشارين الاقتصاديين الكبار. مدلّلة، وراضية عن نفسها، ومن الصعب أن يحوز أحد على رضاها، وإذا ما حاز مثلما حزتُ فإن ذلك يدخل ضمن تجاربها.

تحب اللغات المحلية، وقد تعلمت أكثرها. تتحدث اللغة العربية بمعجم فقير. تقول مثلاً «أنت كذاب» وهي تعني أنك تبالغ، أو أن ما حكيته لها غير قابل للتصديق، أو أن حكايتك خيالية، أو أن ما قلته لا يتطابق مع ما تعرفه هي، أو أن حديثك غريب وعجيب.

لست واثقا من أنها قد شربت من قبل، حثثتها على أن تشرب؛ كي يكرر وجها رد فعل الجرعة الأولى. يكاد يكون تقطيب وجهها سمة فكرية مجردة. هناك حاجة إلى كلمات مختلفة عن تلك التي نستخدمها في وصف الوجه العادي. كلمات حميمية، وقريبة من الحياة.

كبحت محاولة واهنة منها للنهوض. يدها صغيرة وباردة ومبللة بالعرق. شفتاها ترتجفان. ضغطت على يدها أكثر، وانغمرت في التسليم الكلي، واعتراني شعور بجسد قد لا ينتمي إلى هذا العالم، ثم ندّت عنها تنهيدة قصيرة.

تنبهت إلى النادل الذي يراقبنا. أنا الذي خفضت بصري أولا من غير أن أعرف. ربما لم يكن ينظر إلي، إنما إلى آخرين، لكنني اعتقدت أنه ينظر إلي، من غير أن أتأكد من ذلك، ربما لأن الإنسان في كثير من الأحيان يعتقد بحدوث ما يخشاه، ويحذر منه.

لم أكن انتبهت إلى أنها تبكي. في الحقيقة لا أعرف ما الذي يجعل شيئاً ممتعاً ولذيذاً النساء يبكين؟! تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها ذلك.

سنعود إلى الفندق، لكن ليس قبل أن تمر على أهلها لكي تخبرهم أنها مع صديق. قطعنا الكورنيش في اتجاه حي الإيرون.

انتظرتها قرب الدّوّار. هناك حيث يجلس المجنون العاري. أظن أنه أرس الذي قال ليس مجنونا، لكنه من المخابرات. لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحا، لكن مكانه قريب من القنصلية الفرنسية، ومن مقر رئيس الوزراء، ومن فلل أعضاء مجلس الشعب.

لسنا في حاجة إلى نركب الباص، فالفندق ليس بعيدا، ويمكننا أن نقضي الوقت المتبقي عن غروب الشمس في السير تجاه شارع الجمهورية. تجاوزنا محطة السكة الحديد، ومقر وزارة الكهرباء والماء ومقر الاتصالات ومقر المحكمة. وازينا دار السينما، ثم انتبهنا إلى أحد الباصات.

هناك رجل يكاد يخرج من نافذة الباص، وهناك من يمسك بقدميه كي لا يقذف بنفسه. كان إدريس قد أخرج نصف جسمه من النافذة، بينما بقيت رجلاه ممسوكتين من الركاب. في الواقع نظرت إلى ما هو فيه برضا. متعة من تريد أن يصيبه سوءا فأصابه.

- نذهب إلى الطبيب؟ سألته.

- لا أريد أطباء قذرين؟ أجاب.

- ما الذي أفعله لك؟

- أن توصلني إلى البيت. قال. لا أستطيع أن أذهب وحدي. أرى العالم من خلف زجاج.

- أنت بخير. قلت له. تحتاج إلى أن ترتاح.

وصلنا إلى شقته. هناك فقد الوعي. نزعت ثيابه وعلقتها. مددته على الأرض، بعد أن فرشت له. فتحت النافذة، وتركتها مفتوحة.

عدت إلى فتاتي، التي سبقتني إلى الفندق.

ـ لقد قررت أن أراك. ها أنا رأيتك. أنا سعيدة. لكن أتوسل إليك أن تجعل من هذا اللقاء لقاءنا الأخير.

قالت ذات الشعر المجعد كأنها تريد أن يصبح ما حدث من الماضي.

ـ إن أردتك فلن أتراجع عن التفكير فيك.

ـ لا. أرجوك. تبادلنا العميق للأفكار يجعلني أشعر. هناك طريق مشقوق في دغل قلبي منذ قابلتك أول مرة في الفندق. أنا وأنت عبدا جسدينا. جسدان يمتلكان معرفة ببعضهما البعض. جسدان نادران، يكمل أحدهما الآخر.

ـ ما أحاول إيقاظه فيك ادفنيه. أما أنا فسأحتفظ بذكراك.

ـ يا للحزن!!

ـ كان علي ألا أراها. جئت إلى المقهى عدة مرات.

ذات يوم وجدت كل شيء قد تغير؛ سوي المقهى بالأرض، وبدأت الأعمال. ظللت هناك لفترة مغلقا عيني. خاطبتها وهي بعيدة. فكرت: لا بد أن المبنى الذي سيخلف المقهى سيكون جميلا؛ لأنها كانت هنا. ولم أعد إلى هناك كي أتأكد.

غير أن القدر يتصرف في النصف من أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر. لا أتذكر الآن من قارن القدر بنهر عنيف. يفيض، فيغرق السهول، ويقتلع الأشجار، ويجرف التربة. بعد أن يتوقف يعود الناس لينهضوا. يضرب القدر ضربته ثم ينهض الناس.

إنني أفسر بالمقارنة بين القدر والنهر تعرجات الحياة والتواءاتها؛ فحين ظننت أن ذات الشعر المجعد قد أمحت من ذاكرتي طفت مرة أخرى. في المقهى ذي الطاولات الزرقاء. هناك حيث ظهرت الرغبة التي تقبع تحت سطح الروح البشرية.

كان ثمة ستار من الناس بيني وبينها، ولم أكن أرى سوى ظهرها، تبدو كما لو أنها تستند بمرفقيها على الطاولة. لا يمكن أن أُخدع. إنها هي. تحايلت واقتربت، متوقعا أن تلفت من صوت سحب الكراسي، لكنها لم تفعل. حشرت نفسي بين شخصين نظرا إلى بعينين باردتين.

اعتقدا أنني أبله فانسحبا يضحكان.

ـ لا أتصور أبدا أنه نسيني. قالت ذات الشعر المجعد. لكنني لم أعد أشعر بأفكاره. لابد من أن ياسمين هي الملكة الآن وأنا النحلة العاملة.

كانت تتحدث مع أفراح.

تساءلت: هل حضورهما معا يعني أن إحداهما تعرف ما فعلته بالأخرى؟.

في لحظة حنق على ذات الشعر المجعد كنت قد حذرت أفراح من أن تقول لها أي شيء. أردت أن احرم كل واحدة منهما من أقرب صديقة.

كم مر من الزمن منذ قلت لأفراح؟

ـ لا تقولي لها شيئاً.

ـ أشعر بأنني سأقول لها كل شيء.

ـ لا. لا يمكن أن تقولي.

ـ هي تعرف كل شيء في عيني.

ـ ألهذا الحد؟.

ـ وأكثر. أنا واثقة أنني سأبكي حينما أراها.

ـ البكاء موضوع يلائم تحريف الحقائق. ألم تسمعي بدموع التماسيح؟

وهاهما معا. هل بكت أفراح؟ هل حرفت ببكائها الحقيقة؟ لم أكن أعرف.

فضلت أن أبقى مثلما أنا لكي أسمع.

ـ لا بد من أنه هو يشعر بأفكاري. أتعتقدين أنه يائس؟ سألت ذات الشعر المجعد.

ـ ربما.

ـ إذا رأيته حدثيه عني.

ـ سيكون سعيدا.

ـ نعم. يدرك معنى السعادة الذين جربوها أولا في أذهانهم.

يُرى من المقهى الذي تجلسان فيه البحر، وقوارب الصيد. ويتوقف الإسفلت القادم من الكورنيش على شكل لسان عند جدار دائري يحدد توابع المقهى من الأملاك. كوخ وكشك وموقف سيارات، ومساحة مملوءة بالخشب، وفي طرفها البعيد تتراكم الكونترات التي ستُشحن إلى أثيوبيا.

ـ هل ندمت على تلك الليلة؟ سألت ذات الشعر المجعد.

ـ نعم. أقصد لا.

ـ وأنت ندمت؟.

ـ لا. من غير أن اقصد نعم. مهما تكن عواطفي، فليس من الممكن أن أستعيد عواطفي آنذاك؛ كالاستسلام إليه وهو يتحسس جسدي، ويدس رأسه بين نهدي، وأشياء أخرى أسميها «حياة نشيطة»، وتلك هي الحياة التي أردتها.

ـ أنت جريئة جدا.

ـ ليست جرأة، إنما الحقيقة التي يجب أن تقال.

بدا لي أن أفراح كتمت زفرة. زفرة خفيفة لا تكاد تسمع. لا بد من أن ذات الشعر المجعد قد سمعتها أو على الأقل شعرت بها؛ فأنا الأبعد قليلا عرفت؛ فما بالك وهي الأقرب.

ـ أي حقيقة. كل الناس يتحدثون عن الحقيقة.

ـ فاجأ السؤال ذات الشعر المجعد، ولم تسعفها التربية التي تربتها، ولا الكتب التي قرأتها.

ـ أمام الحقيقة: إما أن تحبيها أو تتعاطفي معها.

لأن ذات الشعر المجعد تحب الأحداث المفردة فقد دخلت في جدل داخلي. لقد تربى عقلها على الوحدة، وترعرع على الكتب التي لم تكن تناقشها مع أحد. ولأن أفراح تحب تداخل الأحداث، وزحف بعضها فوق بعض فقد استغرقت في تأمل الأمواج.

ـ هل أقول لك سر؟ أنا حامل. قالت ذات الشعر المجعد.

لم تدقق أفراح فيما سمعته، لذلك ردت آليا

ـ أنت لا تتوحمين.

حينما انتبهت إلى ما قالته؛ تأملتها، لاشيء خارجيا يدل على أنها حامل. فقط بريق عينيها، بريق ماكر كما لو أنها تبحث عن فرصة. أتكون تجس نبضي؟ تساءلت أفراح.

وجدت أفراح نفسها مندفعة لكي تتأكد. هناك من يقول الحقيقة بوعي، وهناك من يقولها كما لو كانت خطأ يفلت من اللسان.

ـ سينبذونك. قالت أفراح.

ـ لا تنسي أنني نصف إفريقية.

ـ لن يقدم لك نصفك الأوربي أي شيء.

ـ لا يهمني. أعتقد أنني أحمل مخلوقا. ذئبا، ثعلبا. أي شيء إلا أن يكون إنسانا.

تملكت أفراح رغبة في أن ترى ذلك المخلوق، وظلت الرغبة كامنة. سمعت عواء ذئب فتجمدت في مكانها، وأخذت تبحث عن مصدر العواء الذي توقف فجأة.

ـ أسمعت قرقرة بطني؟ سألتها ذات الشعر المجعد.

ـ ليست قرقرة، إنما عواء ذئب. أنا سمعته.

ـ أكان من الواجب أن تبقي كل هذه الفترة لكي تصدقي كلامي.

أن يسمع المرء هذا الحوار ولا يفكر في وهم الحَبَل، فذلك سوء في الذاكرة أو قلة في المعلومات. وفيما أن أفكر في وهم الحبل تأكدت أنني أقحمت نفسي بين فتاتين. في ذلك الموضع حيث الشهوة أقوى. على بعد طاولة واحدة، كان حريا بي أن أتخفى حتى لا يرياني. لكنني عجزت. لابد من أنهما لمحاني. عدت إلى الفندق، ولم يكن في استطاعتي أن أزيل من قلبي شعور بأنني قلبت حياتهما، ومنعتهما من أن يكونا زوجتين وأُمّيْن.

ـ ١٤ ـ

ـ مازلت حيا؟ سألتني ياسمين.

تغير صوتها، أصبح أنضج

ـ نعم. حي. قلت.

ـ هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟ سألتُ.

ـ لا. سأبقى هنا بعض الوقت. أجبتُ.

التقطت من الأرض حقيبة سفر. التقطتها كما لو كانت طفلة تلعب بدميتها، وفي الوقت ذاته تتمتع بما للفتيات البالغات. ناضجة، لكنها لم تتخلص بعد من خصائص الطفولة.

ـ أنا سأسافر. قالت.

ـ إلى أين؟

ـ تعال. سيقام عرسي قريبا، ومن ثم سأغادر إلى باريس.

ـ عرس!!

ـ نعم.

تمنيت أن أكون معها. ليس مجرد أن أكون معها، إنما أكثر من ذلك.

ـ من هو العريس؟ سألت.

ـ يمني مقيم في باريس. قالت.

ـ كيف عرفتيه؟.

ـ هو عرفني.

ـ قل لي: هل تستطيع أن تعرف وأنا أمشي أنني عذراء؟.

ـ ليس بالأمر السهل أن أعرف.

ـ ما معنى أن تكون الفتاة عذراء؟

ـ أجيب بالكلمات؟

ـ نعم. بالكلمات.

ـ لا أعرف. التعرف هنا معايشة وليست شرحا.

ـ المعايشة لا تقدم البرهان.

ـ في الحقيقة لا أعرف ما معنى أن تكون الفتاة عذراء.

تقدم منا رجل مخمور فوقفت لكي أحميها. ثم ذهب.

لذت بالصمت وتذكرت فقرة من كتاب: «الحب في زمن الكوليرا» لماركيز. كنت قد جربت الفكرة من غير أن أعرف، ثم قرأته «كان متأكدا أنه سيتقلب معها على السرير؛ لأنه يعرف أن امرأة ضاجعت رجلا مرة واحدة، ستتابع مضاجعته متى شاء، طالما عرف يلينها كل مرة».

تبدأ الأشياء وتقارب على الانتهاء. كدت أضحك من الصدف

المحضة التي جمعتني بها. لكن، ألا تكون رغبة كلينا في أن يرى الآخر هي السبب؟ ربما الأمر كذلك.

قبل أن تدخل هي إلى المقهى دخنتُ، ثم شربت القهوة. أردت أن أذهب لكنني بقيت. وعلى غير العادة كان النادل يترك عمله لكي يتحدث معي؛ كما لو كان يقول لي: انتظر. لا تذهب، لأنها ستأتي. سيكون من العبث أن أبحث عن دوري أو عن دورها في أن نلتقي. من الصعب أن نفسر، ومن الصعب أن نصف. الدور موجود، لكننا لا نفعل إلا ما يتوجب علينا أن نفعله، لا ما نريد أن نفعله.

حدث كل هذا ضحى. قبل الظهر استأجرت سيارة وذهبت إلى دورالي؛ لأنني مدعو إلى غداء للسعوديين الموفدين، ارتأت السفارة أن تقيمه هناك؛ حيث البحر يمكننا أن نسبح، وأن نتأمل.

حزين لكن ليس إلى الحد الذي يمنعني من أن استمتع بالطريق الذي أماتته الشمس. لا بد من أن قرونا مرت على تلك المقابر التي تحمل أعلاما خضراء. الشجيرات، والسهل المجدب، والطيور التي كللت أشجار السّمر. والجماعات التي تسير. هناك أمل ما لهم. بصيص منه في مكان ما.

لكن الأغنية التي سمعني إياها السائق اليمني ذرت الملح على الجرح: ظلموني الناس. والجاني سابوه واتهموني. ظلموني الناس ظلموني. ظلموني والحق معاية. وسقوني من مر أساهم. ولا حنوا على ضعف ضنايا، والدنيا علي مساعداهم. وأنا قلبي كسير، ولا لي نصير، ولا أملك غير دمع عيوني. ظلموني الناس ظلموني.

مَنْ ظلم مَنْ؟ أنا أم هي؟. لم أكن أعرف. كل شيء غامض، ولا تفسير له، ولم يكن من الممكن أن أعرف أي شيء. من المؤكد أنني خفضت رأسي مفكرا، ومن المؤكد أن السائق تفهّم أو فهم لذلك أغلق المسجل. بقيت صامتا. في الحزن نعود أطفالا وبالمعنى الأعمق لكلمة حزن. نخضع لما يخضع له الأطفال؛ أي نصمت، يُمنع الأطفال من أن يتكلموا، ويمنعنا الحزن من أن نتكلم.

لا شيء يمكن أن يُحكى ونحن ننتظر الغداء، أو نحن نتغدى، إلى أن حانت جلسة شاي ما بعد الغداء؛ حيث لا شيء يربط بين الجالسين سوى سرد النكت والمواقف والذكريات، لذلك فهم يشعرون بحب الذكريات، بحب ذلك الزمن الذي حدثت فيه. يوقظ كل واحد منهم حكاية، ثم يأتي الآخر بحكاية تشبهها وهكذا أشبه ما يكون بتداعي الحكايات.

قلت وأنا لا أعرف ما الذي جاء بما قلت

ـ وجدت كتاب جغرافيا للصف الأول المتوسط فيه عدد الحمير في المملكة.

ـ كم؟ سأل أحدهم.

ـ اثنا عشر ألف حمار. كان ذلك في زمن دراسة الكتاب. عام ١٩٦٤.

ـ والآن؟ سأل آخر.

ـ ثلاثة وعشرون مليون حمار.

قلت وضحكت، ثم خجلت لأن لا أحد ضحك.

أظن أنني كنت نائما وصحوت. يقال أن الكلمات تملكنا، وأننا نعجز عن إسكاتها، أو نسيطر عليها، وأننا ننتهي إلى أن نقول ما أردنا أن نسكت عنه. ذلك ما حدث لي: ملكتني الكلمات، وعجزت أن أسكتها، وانتهيت إلى قلت ما أردت ألا أقوله.

لحظات بعد ما قلت ووقف الجميع. عينوا مواعيد جديدة، وتبادلوا اتفاقات على موضوعات معينة، ثم غادروا حتى أن أحدا منهم لم يعرض علي أن أعود معه أنا القادم بالتاكسي.

في مساء ذلك اليوم كان شاطئ دورالي يغص بالناس. لهو الأطفال، والنساء السمينات، وفتيات البكيني، والشباب بينما أنا أشرب زجاجة نبيذ، وأتحدث مع رجل يكسب عيشه من بيع العقارب إلى مختبر فرنسي. يتعبد الله ببيعها؛ لأنها الدابة التي لدغت الرسول عليه الصلاة والسلام. قال لي واستشهد بالحديث ـ لعن الله العقرب، ما تدع مصليا ولا غير مصل اقتلوها في الحل والحرم.

أدهشتني لغته العربية. لا يلحن، ويستخدم معجما لغويا ينتمي إلى الكتب. الكلمات التي يستخدمها لا تجدها إلا في دواوين شعرية قديمة، أو في كتب مختارات أو مقامات عربية. وهو من أواخر طلاب كتاتيب سلطنة أُبخ قبل أن تستقل البلاد عام ١٩٧٧ م عن الاستعمار الفرنسي.

قال إنه يعرف حكايات كثيرة

ـ أي حكايات؟ سألته.

ـ حكايات كل الأشياء. قال. أبيعها إلى الفرنسيين.

ـ حتى الحكايات يشترونها؟! سألتُ.

ـ نعم. لكن هناك حكايات لا أرويها لهم لأنهم كفار.

ولأنني مسلم حكى لي هذه الحكاية؛

في إحدى الليالي اقتربت منه عقرب، ولأول مرة يخاف. لم يقتلها إنما أستعاذ بالله منها، فكفاه الله شرها. ذهبت فتبعها إلى قرب غدير؛ فإذا بضفدع خرج من الماء، وحملها على ظهره، وعبر بها إلى الضفة الأخرى من الغدير. استدار على الغدير بعجلة لكي يلحق بها.

هناك وجد شجرة تحتها فرنسي نائم، وقد أقبلت عليه أفعى، فاعترضتها العقرب وقتلتها، ثم حملها الضفدع وعاد بها. أخبر الفرنسي بما حدث. ولكي يؤكد له الخبر أراه الأفعى فما كان منه إلا أن أسلم.

الجزء الأغرب من حكايات هذا الرجل لم تأت بعد.

قال لي أنه من نسل الرجل الذي جاء بعرش بلقيس ملكة اليمن السعيد إلى نبي الله سليمان عليه السلام، وأن ذلك العِلْم الذي ساعد جده قد صعد إلى السماء، وقد سُمع له دوي كدوي النحل. وأنه حكيم حلت حكمته محل حكمة إلهية نزعها بعد أن زالت الحاجة إليها.

انفلت حديثه إلى بعض التفصيلات وهذه التفصيلة أغرب التفصيلات.

ذات ليلة وفيما هو نائم أيقظته فتاة حسناء، ومن أوصافها عرف أنها طيف بلقيس التي ماتت منذ سنين. قال في نفسه: ليتها لي. ولأنها قرأت خواطره ضحكت، وأبدت موافقتها واشترطت عليه ألا ينهر طفلا مهما كان خطؤه. وافق على الشرط، وعاشا سعيدين، حيث رزقا بطفل.

عاد في أحد المساءات متعبا، منعه بكاء الطفل من أن ينام. نسى وعده فنهر الطفل. انطفأ النور الذي كان مضاء، وعم الظلام، ولما أشعل النار من جديد كانت المرأة وطفلها قد غادرا المكان.

لم أصدق ما حكاه، لكنني أصغيت لكي أقضي الوقت. ثم إن الناس أحيانا يحبون أن يحكوا لشخص لا يعرفونه، لشخص يثقون أنهم لن يلتقوا به مرة ثانية. يُهيأ لي أن السرد بدأ بهذه الطريقة؛ حينذاك، في طفولة البشرية، حينما لم تكن البشرية قد هيأت تفسيرا بعد. ولأن البشر يبحثون عن تفسير لكل شيء حقيقيا أو مزيفا؛ فقد اختلقوا الحكايات. تبدأ الحكاية واقعية، ثم تتحرك إلى ما هو أبعد عن واقعيتها، لتتحول إلى فنتازيا كما هي حكايات هذا الرجل.

ـ ١٥ ـ

فيما لو قُدّر لك أن ترى واشو عثمان أمام النساء الصرافات في الشارع القريب من صرافة العمودي، أن تراه في زحام الجنود الفرنسيين وهم يستبدلون نقودهم لقلتَ بذبول قلبه، وبتيبس عواطفه، وببقاء حواسه الخمس ليس غير. لكن الحقيقة ليست كذلك. تبدو له الحالة كما لو أن مدينة جيبوتي تهدمت على سكانها السود ليظهر من بين ركامها سكان بيض. يمشي كما لو كان أسود نجا من كارثة، حيْرانَ؛ فما تعود عليه قد تبدل. وجهه الأسود هو الأخير في سلسلة الوجوه العتيقة التي عرفتها المدينة: عوليد، تكارا، فارح، عمر بنجو، آدم بيلو، مصطفى جوليت.

إنه يذكرك بالبنية الفكرية التي تحتفظ بها في طبقات من نفسيّتك، يذكرك بالكائن البدائي فيك، بردود أفعالك التي تتورط فيها أحيانا من دون وعي، في مشاعرك التي تماثل مشاعره.

يستقبل المفاجآت استقبالا يتسق مع الجزء القديم من الإنسانية. استقبالا يؤمن الخطر. قفزة أو صرخة أو تهيؤ لفعل شيء. لا أحد في المدينة يهتز مثلما يهتز حينما يسمع منبه سيارة أو هدير محرك. لبس خوفا، إنما لحظات تحيا في قعر ذاكرته، حيوان في دغل إفريقي

لم ير أحدا من قبل، نحن نفعل هذا، وإلا كيف لنا أن ننسى خبراتنا التي تقبع في كهف يمكن أن يُفتح.

يتقرب بجهله إلى إله أكبر من الموت، إله يعيش سعيدا في مكان ما. إنني أعجز عن وصف الشعور الذي ينتابني وأنا أراه يتعبد إلهه. يؤدي طقوسه بهدوء، كل حركة في موضعها من دون أن ينسق أو ينمق. قضايا روحية كما لو كانت شيئاً عادياً. عظمة مستخدمة في الحياة اليومية.

يقول عنه إدريس إنه شقي لأنه غير منسجم مع زمنه، ويقول عنه أرس إنه سعيد لأنه متوافق مع نفسه. أما أنا فلم أُبْد رأيا. فالإنسانية كحالات نفسية لم يعد لأحد مجال لأن يتوقف عندها بفضل علم النفس. أستطيع أن أقول: إنه عصفور في قفص، قرص مفرّغ من العسل، خلية بلا نحل، أرض بدون حياة لأن أهلها غادروها. شخصية لا يمكن أن توجد إلا في مخيلة إله.

لا يرى واشو عثمان نمط حياته فحسب؛ إنما يرى أيضاً أفقه الفكري. يراهما بعملية بسيطة تضمن حياته. بسيط لا يمتلك ملكة تكوين المقولات المنطقية، ويملك بدلا منها كليات خيالية، قدوات، نماذج مثالية يرجع إليها كل شيء على الأقل فيما يترجمه لنا أرس.

لنقرأ

كجسدها

لا تحب حبيبتي الحَشْو

حينما تتحدث

لا تُنْقِصُ ولا تزيد كلمة

ولنقرأ

قلب حبيبتي أشجع من جسدها

يدفعها إلى أن تراني

حائرة هي

لا تعرف مَن تطاوع

ثم نقرأ

إفريقية أنت

لست غاية في الجمال

لكن وجهك فتنة

يبعث الجنون في الرجل

يمضي واشو عثمان أغلب أيامه في حي حنبلي. حي كل شيء مباح فيه، يتسكع الرجال والنساء. في الحقيقة أغلبهم عجائز في ألبسة محلية، لم يعودوا يفرقون بين الحقيقة والخيال. يمكن أن يقتاد أحدهم أخرى إلى أي مكان منزو؛ خلف صندقة، شجرة، شرشف منشور، وكل واحد ومهارته في أن يشعل أحدهما رغبة الآخر لكي تصبح بلا مقابل، ولا هدف، ومن دون رمز.

يستيقظ واشو عثمان في الصباح الباكر. يوقظه ديك عوليد حسن. يتمطط، يتهادى عبر الساحة، لينشر إزاره ثم يلف سيجارة. يظل يراقب المارة، يتفحص الصندقة التي نخرت الأرضة قواعدها

الخشبية؛ من غير أن يحدد موعدا لإصلاحها. يخرج إلى الشمس ثم ينسى لم خرج.

لا يحتك بأحد. صديقه الوحيد يسمى عوليد حسن. نجا من الموت بأعجوبة، حيث اخترقت الجبهة اليسرى من جمجمته رصاصة وبقيت هناك إذ رفض الأطباء إخراجها.

تشافى، بعد أن أصبحت الرصاصة جزءا من لحمه، لكن أصبح له أسلوب غريب في التحرك. لا بمشي ولا يجر قدميه. إنما يقفز بتوازن ويؤرجح ذراعيه كما لو كان سيطير.

تحولت مشيته إلى لغز.

- لا يرى الشيء ككل. قال أرس.

- لكي يسير يضيف من خياله إلى الأشياء التي يراها في طريقه. قال إدريس.

- يكون صورا للأشياء في ذهنه. قلتُ. يذكرها بعد أن يكون قد سار لكي تتاح له فرصة تجنبها.

- لا يعرف أين توجد ساقاه. قالت ياسمين. لذلك فهو يقفز.

يعيش عوليد حسن مع ستّايت دون زواج أو أولاد. تعمل خادمة في بيت خبير فرنسي في وزارة التربية والتعليم الجيبوتية، وتستأجر صندقة في حي حنبلي. تتحدث العربية بلكنة يمنية. تقديرها للمسافات غريب. تعتقد أنها تلمس الأرض بقدميها، أو ستلمسها بيديها، في حين أن المسافة أكبر من ذلك. ترى خيالات بسيطة: ومضات ضوء، بقع، أشكال هندسية، وانحناء أطراف الأشياء.

غير واشو عثمان؛ هناك صديق آخر لعوليد حسن يدعى ليمْوَا. منذ سنين وليموا هذا يقاوم رغبته في أن يلتقي سنّايت ليسألها: هل غفرت له ما قام به في أيام مضت؟ ينتظرها تحت شجرة قرب الصندقة التي استأجرتْها. لسوء حظه أنها توقفت عن عبور تلك الطريق؛ إذ كانت تخرج من دون أن يعلم من باب الصندقة الآخر، ينما يجلس هو مقابل الباب الآخر.

توفرت له الفرصة حينما غادر مكانه لكي يتبوّل. حينما رأته، تراجعت خوفا منه.

ـ هل عفوت عني؟ سألها.

سمعتْ الندم في صوته؛ حينما يكون الندم ذا معنى.

ـ لماذا لم تتعفن في السجن، وتموت؟. قالت.

ثم استدارت، وتركته.

بقي ليموا طوال النهار يتسكع في الحي بلا هدف. ولما لم يكن تحت الشجرة، ذهبت بنت أخيه تبحث عنه. كانت الظلمة قد هبطت، ومع ذلك فقد ميزت الأسى في عينيه.

ليموا هذا هو الذي كان يعرض على عوليد حسن أن يشرب

ـ ستصبح رجلا إن شربت. قال

ـ حرام. يرد عوليد حسن.

ـ لا تحب أن تصل إلى قاع الأمور. قال ليموا

- يكفي ما على السطح. لا أريد أن أرى أعمق من ذلك. يرد عوليد.

بنت أخ ليموا اسمها ريحانة. قُتل زوجها في مجزرة حنبلي. تلك التي ارتكبها النظام في حق المعارضين عام ١٩٩٤. إن احتمال أن تذهب معي أمر لا يطاق، أمر كئيب ككآبة حي حنبلي، لذلك تمنيت ألا توافق. من العصمة ألا توافق. فكرتُ؛ وأنا أحرف (من العصمة ألا تجد).

اقترحت عليّ أن أتبعها. لا بأس. قلتُ في نفسي. إذا لم أغامر الآن فمتى أغامر؟ وإذا لم أغامر أنا فمن يغامر؟. مشيت خلفها، وهي تدندن من غير أن أفهم أي لحن. ثيابها مرقعة، وجسدها نحيل، لكن وجهها يبعث الجنون في الرجل. فرحتُ! فأنا أنجز ما أريد. استمرت فرحتي لحظة ثم انطفأت. لا أعرف لم شعرت أنها تكسب وأنني أخسر. ربما لا تشعر. لا بأس. هدأتُ روعي. هناك من يكسب، وهناك من يخسر. في النهاية يجب أن يكون العالم متوازنا.

لم نفعل شيئا؛ فولعي بها شابه التروّي. ونحن نتحدث تطور ولعي إلى أن يكون موقفا: لن أفعل أي شيء. لأكن إنسانا ولو لمرة واحدة. جاء عمها ليموا. تحدثنا وضحكنا. إنهم يضحكون. قلتُ. ما سبب سعادتهم؟ تساءلتُ. أهي مكافأة الحياة بعد أن ضيقت عليهم؟.

ثم تعودت على أن أذهب إلى حي حُنبلي. غالبا ما تكون ريحانة وحدها. حين أكون ضجرا تريد أن تعرف السبب. ثمة كلمة أحبتها

وقلدت نطقها هي كلمة «طفشان». وثمة كلمات أخرى أحببنا معا أن نتشارك في نطقها. اعتدنا على أن نضحك، لكن من غير أن نعرف ما يضحكنا. لم يكن مهما أن أعرف، إنما أن أشعر بخفة روحي وبحريتي.

أتركها تتحدث.

ـ تغير كل شيء. أنا شبت، وعمي يضطجع مثل بهيمة، ينبح على العابرين، والسكارى، والعاهرات. الحمار الذي اشتراه لم أسمع عنه شيئاً. وجارتي فقدت أسنانها. سيحين دوري. ربما مات الحمار، وأنا سأموت. في المرة القادمة سيحين دوري، ولن تجدني.

ـ يجب ألا تتحدثي بهذا الشكل.

كنت أتحدث معها وعقلي الباطن يشتغل على موضوع سأشارك به في مسابقة للكتابة باللغة العربية، وفي ذات الوقت أصغي إلى كل ما في الحي، وألْحظ كل ما يدور من حولي.

اقترح إدريس فكرة الكتابة عن حي حُنْبلي؛ لأنه سيشرف على المجلة التي سيصدرها قائد باللغة العربية. في الواقع لم يكن قائد وحده، إنما تكاتف قوى متحمسة من اللاجئين الصوماليين والإريتريين. أغلبهم من البعثيين والناصريين. فرادى ولم يكن يجمعهم سوى حب العربية.

تكفل قائد بالمسائل المالية، وأسند الإشراف إلى إدريس، وأُعلن عن جائزة نصف سنوية مقدارها خمسة آلاف دولار لأفضل ما ينشر فيها من إبداع أو مقالات أو تقارير، وكان هذا مبلغا كبيرا يحصل

عليه أحد ما، سيمكنه من أن يتمتع بالأكل والشرب بعشر دولارات يوميا.

لم أكن أريد أن أكتب عن حي حُنبلي. أنا غريب، ولا أريد أن استعدي النظام القائم لاسيما ما حدث عام ١٩٩٤. أردت أن أكتب عن شخص سعودي يسكن خيمة في أطراف العاصمة. لم أكن أعلم أنه سعودي، لكن قيل لي أنه معارض سعودي هرب أو هُرّب إلى أثيوبيا. هناك سجن مرة أخرى لأنه وقف ضد التنصير. بقي فترة من الزمن في السجن، ثم أُخرج إلى جيبوتي.

على أي حال، اخترت حي حُنبلي. لو حدث شيء ما فإن في وسع قائد أن يساعدني لصلاته بالنظام الحاكم. وعلى العكس من ذلك فيما لو كتبت عن المعارض السعودي، فالسفارة السعودية قد تتخذ قرارا بإعادتي، ولن يستطيع مساعدتي أحد. رحل إدريس، وانتحر قائد وماتت الفكرة.

- ١٦ -

إذا صعدت المنحدر متجاوزا العجوز التي تبيع الماء، فلن تضطر إلى المشي أكثر من ذلك حتى ترى الصندقة التي انتصبت في حي حنبلي. وحتى لو لم تتبين الصندقة من المكان الذي توقفت فيه، فسيظل مميزا جون الصندقة المسنن بطريقة عشوائية كأنما رسمته يد طفلة. جون يكفي لجرح يد طويلة تريد أن تعبث بالكراتين التي تملأ سطح الصندقة للتخفيف من حرارة الشمس.

لو أخبرتك هذا فلعلك ستسأل ما الذي تخفيه تلك الصندقة؟ في الحقيقة لم تكن الصندقة تنطوي على أي أسرار. كل ما فيها مكرر وشائع وعادي. الرجل الذي يسكنها يبدل ملابسة الداخلية أمام المرأة، ثم إن بإمكان المرأة أن تفعل ذلك أمام الطفلة، يتبولون ليلاً في الخارج والباب مفتوح.

تمضي الطفلة معظم أوقاتها عارية، يكفي أن تغفو ثم تستيقظ لترى جذعين عاريين ومتلاصقين. لا تعرف الطفلة ماذا يفعلان، ولو سئلت فلن تجيب؛ فما تشاهده مألوف كالصندقة التي تعيش فيها.

على غير المتوقع خرج الرجل ولم يعد. بنى اللاجئون الصوماليون في حي حُنبلي حكاية غيابه مع الأمور التي فكروا فيها:

ربط بقشته ورحل إلى كينيا مع إحدى اللاجئات. عاد إلى الصومال بعد أن وصلته رسالته مستعجلة لم يعرف أحد مضمونها. التحق بإحدى الفصائل الصومالية الجديدة.

بينما لم يصدق لاجئون آخرون هذه الحكايات وعللوا غيابه في ضوء ما سمعوه ولاحظوه في الأيام الأخيرة فهو لم يكن سوى سكير ومتعاطٍ، يسكر بعرق محلي رديء، ويتعاطى أنواعاً رائجة من المخدرات الأردأ.

رجحت امرأته الحكاية الأولى، أما الحكاية الأخيرة فقد رددتها في ذاكرتها أكثر من مره، واعتبرتها قريبة من الحقيقة. ما يؤكد ما سمعوه عنه، أنها استحضرت الأشهر القليلة السابقة على غيابه. بدا لها عصبياً، وغير محتمل، صارحته بتصرفاته فاعتذر بظروفهم الراهنة.

قالت ياسمين:

ـ لابد من أنها عاتبته في غيابه؛ لأنه لم يقل لها الحقيقة لتساعده. تعرف أنه لم يكن قاسياً. أعماقه مشوهه، لكنها ستقبله؛ كي لا يداهمها شعور بالوحدة مثلما داهمها في تلك اللحظة.

بعد أن انتهت امرأته من موازناتها بين الحكايات التي سمعتها، راقبت الطفلة وهي تعيش أجواء معاكسة لما ينتظر أن تعيش فيه. منهمكة في صنع عروسه (قطعة خشب مبللة غطتها بقماش باهت) تألمت من أجل حياة الطفلة التي تحفل ببدايات عمر تعيس من غير أن تتوقع له نهايات سعيدة.

قالت ياسمين وهي تضحك:

ـ أعتقد الآن أنها غبطتني على خيالي: أن أحول قطعة خشب إلى عروسه. أتذكر أنها اقتربت مني، ثم حضنتني لحظه شعرتُ فيها بما لا أدري من السمو.

هبطت المرأة بذاكرتها إلى ما قبل سنوات حينما حملت ياسمين أول مرة فانفجرت ياسمين آنذاك بالضحك. كانت قد سمعت عنها من عشيقها، كان عشيقاً محباً للأطفال يحدثها عن طفلته.

دائماً ما يقول لها:

ـ طفلة ذات ملامح ودودة. لا تنكر الغريب. جاهزة لأن تبادله ابتسامة.

آنذاك، وحينما لا يجد العشيقان ما يقولانه تعودا على أن يمضيا بقية وقتهما في الحديث عن ياسمين. يفترقان ومن الطبيعي أن تحمله تحياتها وقبلاتها إلى العروسة (هكذا سمتها) وكان مخلصاً ينفذ ذلك حرفياً.

في لقاءاتهما الأولى لم تسأله عن أم ياسمين، فقد انهمكت في أول تجربة حب تخوضها، لم يكن يهمها ماضيه بقدر ما كان يهمها ما لاحظته على جسدها الذي بدأ يذبل في ظل وجود الفتيان على الجبهة التي فَلَت منها لعرج بسيط لا يكاد يلحظ.

لم يكن هو أيضاً يحدثها عن أم الطفلة. خاف من أن يجرح شعورها. في بداية كلامه عن ياسمين يخجل، ويتصبب عرقاً، يخمن بوادر سؤالها ويصمت، الصمت الكافي لوأد أي أثر لتلك الليلة.

أبدى رغبته في الزواج منها فلم تعترض، غير أن فضولها هذه المرة أقوى من قلقها على مستقبل حبها، هو أيضاً لم يغضب أو يرتبك من فضولها. صارحها بأن الطفلة ثمرة علاقة عابرة مع إحدى الإثيوبيات، قال ذلك ناسياً شعوره الذي خامره في لحظة معينة أثناء المعاشرة.

حينما سرد لها ما جرى في تلك الليلة، لم يكن في إمكانه أن يتذكر تفاصيل ما جرى، أماط جانباً الفجوات التي أحدثها الزمن في ذاكرته، فتذكر عرجه الذي نفر الفتيات منه، كما تذكر بشاعة الإثيوبية، لكن إصرار رغبته جعل بشاعتها مغرية. سرد وفي خياله أنهما (هو والإثيوبية) وحشان بشعان رابضان على التخوم بين ما هو لذيذ وما هو مقرف.

تزوجا. شاهدت الطفلة ووجدتها مثلما سمعت عنها. الطفلة رحمة منزله في منزلهما الهادئ في قرية رابضة على الحدود، يبدآن يومهما بتأملها وهي نائمة، وقبل أن يخرج يدللها كأنه آخر مرة يراها. هي أيضاً أسبغت عليها من الحنان ما لم يكن يتوقع أن تقدمه أمها التي تخلت عنها واجتازت الحدود بعد أن عرف القرويون كل شيء،ففي القرية ليس بإمكان أحد أن يخفي الموتى والمولودين.

ارتفعت المرأة من دهاليز ذاكرتها سعيدة، سعادة غير متوقعه لكن مبررها الطفلة، تكفي وحدها لإسعادها، ليس بسبب جمالها وخفة دمها، بل لأنها اعتبرها منحة من القدر. كانت المرأة في الأربعين من عمرها، وكانت الطفلة تذكرها بأحلام طفولتها وقوانين حبها الأول.

شاع غياب الرجل، تسرب عبر النوافذ والأبواب، ركب الباصات التي تخرج من حي حنبلي وتعود إليه، لم يخف رجال الحي اللاجئون دهشتهم. تساءلوا: كيف طاوعه قلبه على أن يقتل روح طفلة مثل ياسمين تحمل هذا القدر من الجمال؟ كيف أمكنه أن يتخلى عن امرأة لاجئة؟

أما نساء الحي فقد وقعن إزاء غياب الرجل في عجز كامل. يحاولن أن يسألن المرأة؛ غير أن ما يسمعنه منها لا يوجد أبداً فيما يتوقعننه. قلق المرأة، وخوفها، وحزنها، يذكرهن بقلقهن، وخوفهن وحزنهن من أن يتكرر ما جرى لها معهن.

توقفت؛ ربما لتلتقط أنفاسها، ثم مضت تقول:

- قلق النساء من شيء آخر هو مشية المرأة. لقد عاشت ما يكفي لذبول جسدها، غير أن مشيتها ما زالت تحتفظ بجاذبيتها. يكفي بأن يراقب أزواجهن مشيتها حتى يسمعوا نداء قلوبهم. لم يكن لضعف رجالهن أمام مشيتها وقع الخيانة، فحتى هن يقفن ضعيفات أمام مشيتها. صممن على أن يدافعن عن رجالهن من غير أن يهاجمن المرأة؛ فالحروب، علمتهن بأن مجد دفاع ناجح، أفضل من هجوم فاشل.

صمتت، كما لو كانت تعيد ترتيب ما حدث، ثم تابعت:

- تنبهت إلى خطة الدفاع عن أزواجهن أكبرهن سناً، لأنها أكبرهن سناً، فقد شعرت بالتعاطف مع امرأة وطفلة وحيدتين، فصممت على مشاطرتهما ما اعتقدته عذاباً وتعاسة. تقول للأخريات: إن طبيعتهن

الحقيقية لن تظهر نقية ما لم تظهر إزاء هاتين الوحيدتين التين لا تملكان أي قوة. .وكن يقلن لها: إن لدى هذه المرأة قوة في مشيتها. تقنعهن بأنها لن تكون قوة إذا لم تجبر على اللجوء إليها، ومن خبرتها برهنت لهن على أن المرأة لا يمكن أن تفشي أسرار جسدها لغرباء ما لم تضطر إلى ذلك.

ـ كيد النساء لا حدود له. قلتُ.

أكملت بطريقة مسرحية:

ـ عجوز داهية وفكرة دفاعها بسيطة: أن يقضين حوائج المرأة حتى لا تضطر إلى اللجوء إلى إغواء رجالهن. تعرف أن الحاجة كافية لأن تعطي المرأة أفكاراً عن طبيعتها حول كيفية الخلاص.

في أول يوم اتفقن فيه على بدء خطتهن ذهبن إلى المرأة، كن مترددات وخائفات من عراقيل تلوح في أفقهن فربما تهزأ بهن أو تصدهن، شعرن بقلق لا يكاد يدرك، لكنهن لم يفقدن إيمانهن بتحقيق فكرتهن، وحينما باشرن العمل في تنظيف الصندقة لاحظن أن بابها أوسع من المعتاد، وأن نافذتها عالية.

لاحظن أيضاً أن ياسمين محمصة بأشعة الشمس، ومزينة في خدودها بانتفاخات صغيرة بسبب البعوض، وحينما انتهين، وفيما هن منهمكات في ملاعبة الطفلة أظهرت لها أصغر النساء سناً ابتسامات رقيقة، فكر النساء في أن هذه لم تنجب بعد، أما هي فقد وقعت الطفلة في نقطة محددة في قلبها.

اعتقد رجال الحي بأن خدمات نسائهم عاطفة متأصلة فيهن تجاه

من يستحق الرحمة. عجزت خبرتهم عن كشف ما وراء تصرفاتهن يقولون

ـ نحن لسنا مثلهن لأننا لا نتمتع بحدس عاطفتهن التي صقلتها الظروف.

تأكدوا أن ما يفعله نساؤهم قد حَرف ما يفكرون فيه، غير أن مشهد المرأة وهي تمشي يضرب في أمكنه عميقة من كيانهم، يغمضون أعينهم فيدخلون في غفلة ساكنة فتسري في أطرافهم قشعريرة تستفز زغب أيديهم وأرجلهم وتوسع مساماتها.

سعد رجالهن، واستخدموا خدماتهن بطاقة دخول إلى قلب المرأة. ضاعفوا جهودهم مرتين: مره كي يعوضوا صنادقهم ما ينقل دائماً إلى صندقتها، ومرة ليرسم كل واحد منهم لنفسه صورة مميزة عند المرأة، . فما تقدمه كل امرأة يرسم صورة ذهنية لزوجها، وفي لهيب حماسهم، استشرى الخلاف بينهم، وشرع كل واحد منهم يوصي امرأته؛ كي تساعده على وضع ما يقدمه الآخر في منزلة أدنى.

في الأيام الأولى قابلت المرأة خدماتهن بامتنان. لم تكتم شعورها تجاه فضيلة وفائهن التي جعلت حياتها متماسكة، غير أنها عجزت عن إقناع نفسها بأن لا شيء حقيقي يكمن وراء خدماتهن. طردت وساوسها لكن بعد أن د ب الخلاف بين النساء، وبدأت كل واحدة منهن تضخم صورة زوجها، ارتعبت منهن أكثر من رعبها من رجالهن، وانسحبت إلى داخلها تضوي الأيام بحزنها.

تنصت إلى جدلهن، ووسائل كل واحدة منهن من أجل سيطرة ما

يحضره زوجها. اكتشفت بأنهن منكسرات، يخفين ضعفاً كامناً لاسيما أصغرهن سناً. تقول لنفسها

- يمكن لأي لاجئ أن يقتاد هذه المرأة الأصغر كما يقتاد حمارة إلى أحد الأزقة المعتمة.

ساورها قلق مصدره التصاق الطفلة الدائم بهذه المرأة. لم تكن تعلم قط أي لعبة يخبئها المكتوب والمرأة الأصغر سناً بهذه الطفلة التي لم تعد الآن طفلة.

في هذه الأثناء عاد غياب زوجها يشغل فكرها حتى عندما يغلبها النعاس. ملابسات غيابه ما زالت غامضة، وذهنها متخم بشكوك لم تبدد، أنصتت إلى تفاصيل تناقلها النساء، محصتها فوجدتها تفاصيل غير معقولة ومتناقضة. لا يوجد يقين يطمئنها وفي مقدورها أن تتوقع قدومه في أي لحظة.

رغم أنها نسيت إلا أنه يحدث أن يتلألأ زوجها في ذاكرتها. عدا هذه اللحظات تفكر في ياسمين التي أصبحت فتاة يانعة. تطيل النظر إلى ماضيهما معاً فتجد اثني عشر مترا مربعاً من الجنة. أعطتها ياسمين فسحة أمل في أن يتساوقا الحياة، وألا تخرج إلا إلى جنة أخرى لاسيما أنها أعطتها ما تحتاج إليه من حب وحنان. هذا فيما مضى، أما الآن فقد توصلت إلى أن ياسمين تخون الجنة يوماً بعد يوم منذ التصقت بالمرأة الأصغر سناً. لم تعد تصغي وتحس بأن رأسها مليء بأسرار النساء الأكبر منها.

في مساء أحد الأيام نادتها أمام النساء. معهن خارج الصندقة

والطفلة التي كانت مع المرأة الأصغر سناً في الداخل، حينما خرجت هالتها الهيئة التي كانت عليها: شعر مشعث، قميص شفاف وضاغط يبرز صدرها اليانع، جينز قصير، صعقت وحزنت أكثر من حزنها حين غاب زوجها.

ـ «تبدين كبنات السوق» قالت.

انزعجت من العبارة لكن هيئتها سببت لها ألما. خجلت ياسمين وارتفع النقاش واشتد مع المرأة الأصغر سناً، يتعلق الأمر بذهاب ياسمين إلى حفلة يقيمها أحد المستثمرين، احتجت المرأة لكن إصرار ياسمين على الذهاب مع المرأة الأصغر سناً تركها عزلاء من كل حجة.

تعرف المرأة أسراراً كثيرة عن بنات السوق لكنها لم تشأ أن تجرح شعور ياسمين، وفضلت الاحتفاظ بهذه الأسرار وعوضت عن إخراجها بالدموع: «دموع شفقة لأنها لا تريد لها التعاسة، دموع عتاب لأنها لم تتوقع منها أن تكون كذلك، دموع غضب لأنها لم تربها كي تصبح بنتاً للسوق، دموع إغراء على أمل أن تؤثر عليها».

قبل أن تفكر في خرق صمتها عن أسرار بنات السوق أصبحت تنسى أحداثاً جرت معها منذ فترة بسيطة متى استيقظت؟ وأين نامت؟.. ثم واجهت صعوبة في التركيز على مهمة واحدة. فقدت اتصالها بالحقيقة؛ تظن الباب نافذة والعصا مفتاح. اختلط عليها الليل والنهار، وعجزت عن إنجاز الحركات اليومية. حية لكنها فقدت

هويتها حتى أصبحت غريبة عن نفسها. يحدث لها كل هذا والطفلة التي كانت تهرول مع المرأة الأصغر سناً حتى وصلت إلى قائد.

حينما أنهت ياسمين حكايتها قالت:

ـ لم أتحدث عن هذا لأي شخص.

كنا مستلقيان. ليس هناك مكان في الدنيا مهيأ للمكاشفة أفضل من السرير، لا أعرف لم هو كذلك. سردت لي ياسمين حكايتها كما لو أنها لن تحصل على فرصة مماثلة، تحدثت معي كما لو كان آخر اعتراف لها. تألمت مما تفعل، حتى أنني شعرت بأنها تحكي طلباً لتوبة لن تأثم بعدها أبداً.

الكتاب الثالث

حاشية

ـ ١ ـ

ـ أحب أن أتحدث مع أشخاص لا أعرفهم. قال أرس.

ـ لم؟ سألته.

ـ لكي أسألهم: أأنتم سعداء؟.

ـ وهل سيعترفون لشخص لا يعرفونه؟.

ـ يحب الناس أن يحكوا لمن لا يعرفونهم.

ـ أحيانا يظنون أنني أمزح. أضاف أرس. أعرف أنهم يكذبون، هناك نبرة خاصة في صوت من يقول الحقيقة. التجربة علمتني التمييز. لكن ما الذي يفعله شخص بائس سوى أن يكذب؛ أن يقول: إنه سعيد.

ثم ما الذي حدث بعد ذلك؟ قرأ أرس هذه القصيدة.

أنا وحيد

في العاشرة مات أبي

وفي العشرين ماتت حبيبتي

وفي الثلاثين ماتت أمي

وفي الأربعين مات ولدي الكبير بالحمى

وفي الخمسين ماتت زوجتي العفرية
وفي الستين قتل ولدي الأصغر في الحرب
وفي السبعين قتل وطني
وفي الثمانين قتل قلبي
فأنا بلا أب
ولا حبيبة
ولا ولد
ولا وطن

ـ هل اخترت عنوانا؟ سألته

ـ لا.

ـ يبدو عنوان كـ«وحيد» جذابا. قلتُ

ـ فكرت في ذلك. لا يبدو لي جذابا. قال أرس

ـ لم؟ أنا أراه كذلك.

ـ لا يعبر عما شعرت به من النص الأصلي كما سمعته من واشو عثمان.

ـ لم أفهم. قلتُ.

ـ في النص الأصلي تنقطع صلته بالحياة الواقعية، لكن اللاوعي يبني حالة من الوهم منظمة إلى هذا الحد أو ذلك، يبني واقعا وهميا بديلا يجعله يعيش.

ـ وكيف ستُوصل هذه الحالة؟

ـ لا أعرف. فكرت كثيراً، لابد من أن أكون مريضاً بالفصام لكي أعبر.

الحديث ذو شجون. يعلو ويشتد ثم ينخفض. يتغير في كل اتجاه؛ الحكايات الطريفة، وذكرى الأشخاص الذين ماتوا. لكي يختم أرس ما كنا نتحدث فيه.

ثم ماذا؟ قرأ قصيدة أخرى

من أجل بيتٍ من الشعر
أصمت سنة
من أجل قصيدة
أدفع أجر سنة أخرى
من أجل أن أكون شاعرا
أمشي سنة ثالثة على قدمي

لم نستمر في الحديث، فقد جاء منظف الغرف وهمس في أذن أرس

ـ يا إلهي! قال أرس.

ـ ما الذي حدث؟ سألت.

ـ المستثمر شنق نفسه.

ـ قائد!

ـ أرجوك الق نظرة على الغرفة. توسل إلي أرس.

ـ لا. أجبت. لا أريد أن أرى أحدا مشنوقا.

ـ ولا أنا. قال.

يحدث أن ينعدم رد الفعل كما حدث معنا. أنا وأرس ومنظف الغرف.

ذات مرة حدثني أحد الأصدقاء عن أغرب رد فعل. قال لي: طالما فكرت فيما سأفعله فيما لو مات أبي، لاسيما أنه يساق إلى الموت، فهو مريض بالسرطان. في ذلك الصباح قالوا لي مات. لم أفعل أكثر من أن أشعلت سيجارة. لا أكثر لا أقل.

تلك هي حالتنا؛ أشعلت سيجارة، وحتى أرس الذي لم يدخن قط، طلب سيجارة وأشعلها.

دخّنا صامتيْن، وفكرت روحانا في نفسيها، وانكشف لهما عبث الأشياء، ومسّ شيء ما قلبينا، وتوهجت ذكرى الأيام مدفوعة بقوى لا مرئية. عندئذ انهارت دفاعاتنا. بكى أرس. ماذا أفعل لرجل يبكي؟ وددت لو أنني بكيت معه، لكنني لم أستطع. وقف ومضى يبحث عمن يصعد معه. لقد كان دائما موظفا وخجولا، لكنه الآن يطلب باكيا من النزلاء أن يساعدوه.

صعدوا وبقيتُ. أردت أن أفهم، استعدت تلك الليلة، والانكسار الذي حل بحياة قائد. فكرت في قسوة أن تكون المتفرج الذي لا حول لك ولا قوة، تعاسة أن تلعب دور المشاهد لا أكثر ولا أقل، أن تعيش كما في حلم تحاول أن تنزع رجليك فلا تستطيع، أن تكون الذباب وليس العنكبوت. أن تنجز ما أنت عليه فقط؛ لأنك لم تُعط أكثر من ذلك، أن تعرف الإجابة ثم تتغير الأسئلة.

مر علي محمولا، عندئذ أدركت أن الحياة بكل آلامها أفضل من الموت. أريد أن أعيش لا أن يُحكى عني؛ فالفرق بين الحياة وبين الموت هو الفرق بين تجارب تعاش، وحكاية تروى.

بقيت بعض الوقت لأتأكد من أنهم وصلوا إلى المستشفى، ثم ركبت الباص، الذي مضى يلتقط الناس على امتداد شارع الجمهورية.

- أشعر بألم. قالت المرأة التي تجلس إلى جانبي.

كدت أقول: وماذا أفعل لك؟ لكنني صمت. فقط تزحزحت لكي ترتاح أكثر.

بدأت تتلوى أكثر. يبدو أنها ستلد، مسحت الباص لأرى النساء. أربع فقط، والباقي رجال. عدت ونظرت إلى وجهها. قطرات من العرق، ولم تعد واعية بما يجري حولها.

أشرت إلى إحدى السيدات، وأخبرتها. عبر السائق الخط الأصفر وتوقف. لم نكن نحن الرجال ننظر إلى ما يحدث، ومع ذلك كنا متأثرين في انتظار السائق الذي ذهب يطلب مساعدة.

لا أعرف ما الذي حدث؛ لأنني ركبت باصا آخر وأنا أفكر: يولد أشخاص عندما يموت آخرون.

بوصول الباص إلى السفارة الأمريكية نكون اقتربنا. دفعت الحساب، وتحاشيت الزحام أمام المستشفى، وعبرت أقصر الطرق إلى البوابة. تخطيت نساء حافيات يجلسن في انتظار الزيارة، قابعات يضعن سلالا في محاجرهن، وحولهن أطفال صغار متعلقون

بأثدائهن. وكبار ينتشون الخبز. في هذا المكان الكئيب، حيث المصائب لا تُدفع، والحياة تعاش بألم، لا يوجد ما يطمئن الناس سوى شجرة وحيدة خضراء تحركها الرياح.

قبل أن أدلف توقفت أختلس النظر إلى رجل على ركبتيه يغسل امرأة شبه عارية. امسكها من تحت إبطيها، ثم رفعها لكي يجلسها على مقعد من الخشب. شعرت بي وتجهمت.

ـ هناك مشكلة. قال أرس.

ـ أي مشكلة؟ سألت.

ـ لا أحد هنا من أهله، ولا يوجد له قريب.

- ٢ -

- التيارات الإسلامية دعت إلى مظاهرة غدا. قال أرس.

- أكيد ضد أمريكا. قلت.

- ضمنيا. قال. لكنها دعم للعراق المحاصر منذ ثمان سنوات.

- ستشارك؟ سألته.

- نعم. وأنت؟

- سأشارك. قلت. سأجعل من مشاركتي حلم يقظة.

ابتهجت؛ لأنني فكرت في أحلام اليقظة. كدت أضحك من مفارقة أن أحلم حلم يقظة، بينما أنا أعيش وأشارك.

لا يمكن لمن لم يتظاهر أن يشعر ببهجة المظاهرة، لو أسعفك الحظ يوما ما في أن تتظاهر فلا تتردد؛ لأنها ستظل معك مدى الحياة. (أنا) الجديد الذي أصبحته في المظاهرة؛ لا تستطيع أن تتابعني إلا بالخيال. نسيت كل ما خلفته في وطني. رأيت الغابة، ورأيت نفسي أعدو فيها. أخب متوغلا في عمقها، بلا نهاية، لأن بلا النهاية هي الكمال ذاته.

أصغيت إلى الهتافات. في الواقع لم تكن هتافات، إنما غناء

في بلدي كومبارس.

حين انتهت المظاهرة، جاء على بالي أن أسير تحت الشمس، وأتمشى ببطء. لا أعرف اسما لما أعيشه، أريد أن أقول الحرية التي هي أكثر من السعادة.

عدت إلى الفندق.

ـ أظنها لك. قال أرس

ـ ما هذا؟ سألته؟

ـ رسالة. قال

فتحتها ثم قرأتُ

لا أعرف بم أناديك.

هناك ما يجعلني أتذكرك وهو ياسمين.

لم أنس خيبة ظنك حينما حدثتك.

رأيتك تحسن الظن بنفسك، وأعتقد أنك بهذا تحاول أن تضلل الآخرين. شخص مسطح ومخطط بالأسود؛ الفرق بينك وبين الشخصية الكرتونية أنك إنسان حقيقي.

لستَ الأفضل، إنما الأسوأ، وإليك السبب: ليس ثمة ما هو أكثر إقناعا بالوطن من المنفى. تحمله في داخلك، وتذكرك به نباح

الكلاب وزقزقة العصافير. المنفى حالة معنوية؛ لأنك تدرك بصورة لا شعورية أنك ستعود. أن تكون منفياً، لا يعني أن وطنك غادرك.

أما أنك أسوأ؛ فلأنني عشتُ في وطنك.

كن رجلا واعترف أنك بلا وطن.

اعترف أن وطنك مقسم بين النحلات الملكات اللاتي يستمتعن، والنحلات العاملات.

من سوء حظك أنك نحلة عاملة.

كن رجلا واعترف أن الحياة في وطنك تسير لصالح الوغد.

كن رجلا واعترف أن كل شيء في وطنك يجيء بعكس المطلوب.

كن رجلا واعترف أن الدين في وطنك يورث الخطيئة.

كن رجلاً واعترف أن أحكام الشريعة في وطنك تورث الفساد.

كن رجلا واعترف أن الأخلاق في وطنك تورث العهر.

غريب أن ينتج عن هذا ذاك.

لا أستطيع أن أعرف ما إذا كانت الآخرة موجودة أم لا. هناك عوائق كثيرة تحول دون ذلك، منها صعوبة الموضوع، وقصر العمر...

نقترب من الموت فلا يبقى لنا من الوطن سوى بقعة صغيرة هي مرتع طفولتنا.

في السيناريو الذي تخيلته: كنت قد سألتني: لماذا أكتب لك

أفكارا لا رابط بينها. كنت قد جهزت لك ردا مؤقتا: إنسان مقدم على موت، دعه يتكلم..

سأنتحر. هل هذا فعل شجاع؟. كنت قد قرأت أن الانتقال إلى الفعل مسألة تتعلق بمنظور الفرد، وبرؤيته الأشياء، وبوعيه حقيقة ما أصبح عليه، وليس في وهم وتصور ما يرغب أن يكونه من أجل شخص ما.

تحملت قبلك فكرة أن أكون منفيا، لكن حديثي معك أثبت لي أنني قادر على أن أموت متى ما أريد. سأنتقل إلى التطبيق، وأظنك تعرف أن الفرد متى ما شرع يطبق فهناك صعوبة بالغة في أن يعود إلى التنظير.

الآن سأعلق الحبل. الفكرة تأتي وحدها. ليس بمقدور المنطق أن يفسر الأشياء، وليس هناك ما هو أصعب من وصف إنسان يُعد لموته.

الآن أنا ممدد؛ أحدق في الحبل، وأتخيل التفاصيل. مشهدي وأنا معلق واضح. أعيش اللحظة بعنف. أترقب متى أقفز إلى عالم مجهول. مرعب هو، ومع ذلك سأعبره وحيدا.

ما أجمل المغامرة! ما يجب أن يحدث! أنا الشاهد على موتي. سأقفز من المقلاة إلى النار.

قايد

طويتُ الرسالة. في الحقيقة لا أعرف ما إذا كانت رسالة أم أفكار. أعرف أن النوع يفتح أفق انتظار؛ لكن هنا لا شيء، سوى الفراغ.

ـ ما الذي يريد أن يقوله قائد لي؟ سألت أرس

ـ لا شيء. يؤخر اللحظة التي لم تحن بعد.

ـ في انتظار قدره. قلت.

ـ لا. لا علاقة لهذا بالقدر. قال أرس. ما يناقض طبيعة الإنسان، أن يُستخدم على أنه مجرد وسيلة. على الأقل عند فيلسوف المثالية الأعظم. لكن لم تمض سوى بضع سنوات حتى قال فيلسوف مثالي آخر، يندرج الإنسان تحت فئة الوسائل التي تُستخدم. الإنسان مسكين.

ـ لا أعرف. أضاف أرس. يعيش الإنسان حياته ليدفع الثمن، ويعاني الخسارة. يخفق ويهلك. يُذبح ويُضحى به. الإنسان بريء وسعيد لا ذنب له. يتخيل نفسه في نزهة. يتطلع بفضول ويستخدم عيونه لكي يفهم. لم يكن قايد يعرف أنه كالخروف لا يملك نفسه، ولا يملك حياته. يوجد لكي يُستخدم حتى آخر قطعة منه. يُؤكل لحمه، تُسحق عظامه، ولا يفلت منه شيء.

ـ ثمة شيء فاجع ومضحك. قلتُ. حتى إنني لا أعرف ما أقول.

فيما أنا صامت اغتنيت بانطباعات شخصية، وبردود فعل ذاتية، لا تخلو من غرابة. في الخلفية البعيدة، هناك في مكان ما، يكمن مصدر الحركة والقوة الدافعة. أما هنا؛ أقرب إلينا فإخفاقات ونكسات إنسانية. هناك راو مجهول يحكي الحكاية، وحينما يصل إلى ما يحياه في الحاضر يتكتم على حكايته، لأنه لا يرغب في أن يكشف هذا الجانب من حياته، الجانب الأكثر اضطراباً.

يفعل. سيكون حاضره ماضياً، وسيكمل الحكاية. على رغم الصمت الذي يتخللها ستبلغ حكايته نهايتها. لأن الصمت يسهم مع مضي الوقت في تقدم الحكاية. الصمت هو مصدر الحكاية وقوتها الدافعة. في يوم ما سيجل الروي حكايته في كتاب مبقياً على صفحات بيضاء. تلك هي لعبة قائد وحكاية.

- ٣ -

خارج عن المألوف. شيء لا يمكن سماعه كل يوم؛ تناقل الناس أن فتاة وضعت ذئبا. سمعت الخبر فسجل قلبي الصدمة قبل أي عضو مني. تأخر الوقت لكي أقوم بأي فعل. لم يكن في وسعي ذلك. يا لهذا الذي يحدث!!الحياة كحلبة سباق. لاشيء، ثم يُقرع الجرس؛ لتجري الخيول.

أفتح موسوعة في علم النفس لأعرف ما جرى فأجد: هوس ذئبي. جنون يصور للمريض أنه ذئب، أو قد تحول إلى ذئب، وقد يعتقد المريض بالفصام أن بوسعه أن ينقلب حيوانا، أو يمسخ الآخرين حيوانات. ويطلق على هذيانه من هذا النوع اسم هذيان الانسلاخ، أو المسخ، أو التحول.

ها أنا أعيد سرد ما حدث مثلما سردتها الصحف في اليوم الثاني.

في الحديقة؛ حيث يبيت الشحاذون تأتي فتاة لتنادي ذئبا. تسمع كلمة الذئب ثم تتلفّت وتبكي. ذاع بين الناس أن الفتاة تفقد عقلها إذا ما نطق احد أمامها كلمة الذئب. هربت فطاردوها وهم يصيحون: الذئب، الذئب. طردوها وطاردوها ورجموها، ضربوها ومزقوا ملابسها.

يعرف الناس بقية الحكاية؛ غير أن كل واحد منهم يرويها يضيف إليها. من كان منهم شاهدا عليها؟ لا أحد. ولا أهمية لذلك، إلا أن انطباعا يتملكهم بأنهم شاهدوا ما حدث.

في تلك الليلة، الشحاذون وحدهم أنصتوا إلى خطى معتقدين أنها خطى شرطي. كان الظلام يمحو حدود الأشياء، ويغلف أسطح المرئيات بالأسود، ويضفي هالة من الخطر الدائم.

اقترب شحاذ من الفتاة. قبل أن تقترب يبدو أن شيئاً ما ينتظر حدوث آخر. أحدهما لا يعلم، والآخر يجهل. صاح الشحاذون: الذئب، يريدون أن يضحكوا على الشرطي. وثبت الفتاة فوق الشحات كأنها لبؤة في سيرك نسيت حيلها التي تعلمتها، ولم تتركه إلا وهو جثة هامدة.

صرخ الشحاذون من الهلع، وأيقظت صرخاتهم شرطي كاد ينام. في تلك اللحظة بالذات. اللحظة التي لمح فيها الشرطي شبحا فارا يتجه ناحيته، ارتبك في موضع عميق وسري، فأطلق عليه النار. تهاوى الشبح، وتردد صوت الطلقة ثم عم صمت كصمت القبور.

كيف حدث هذا؟ سؤال لا جدوى منه، ولا يؤجل اللحظة المروعة التي تنتظر ذات الشعر المجعد. حين يتوجب على البشر أن يرضوا بالحقيقة. ومما يزيد هذه النهاية خلوا من المعنى، أن الله قضى الأمر مسبقا، وأي جهد يُبذل لن يكون سوى عبث، فالموت دائما ما يسبق نهاية القصة.

نهش موتها داخلي، ما يوجعني أكثر أننا لن نلتقي مرة أخرى.

أندم على ما لم يتحقق. أحن إلى أيام مرت. ماتت ولن تعود أبدا، وليس هناك ما يدعوها إلى أن تعود. ودعت الأشياء التي ستستمر من دونها. هناك ما ينسى، وهناك ما لا ينسى، وذات الشعر المجعد لا يمكن أن أنساها.

قرأت في كتاب ما أن الإنسان سيء الحظ؛ لأنه حياته لا تصاغ أولا في مسوّدة. يستطيع الكاتب أن يغير صياغة ما يكتب؛ لكي يتلافى العيوب، أن يرمي بالمسودة في سلة المهملات، لكن الحياة ليست كذلك. ما عاشه الإنسان لا سبيل إلى تصحيحه، ولا إلى تغييره، ولا إلى إلقائه جانبا.

كم هو الإنسان هش وعابر!!

حدث ما حدث، واتفقنا أنا وأفراح أن نخرج بعد أن يحل الظلام؛ كي نشاهد كسوف القمر. دعتني إلى مطعم يس بعيد عن الحديقة التي قتلت فيها ذات الشعر المجعد. شربت بلا توقف، تأملتها وهي تشرب. لم أصدق أنها هي، يبدو أن السبب هو الحالة المزرية التي أصبحت عليها. الجهد الضائع، والطاقة المبدّدة. وددت أن أقول لها: مهما كانت طريقتك في الحياة، فإن شيئاً لم يتبدد منك. أنت الآن أجمل مما كنت آنذاك، صرت ما بقي منك. الشيء الجوهري. يرخي الشراب جسدك ليزيده استسلاما وفتنة، حتى أن عينيك عادتا عيني طفلة.

- حزينة. تكاد تموت.

أسمع الناس يتحدثون عنها.

ستكون حياتها من أجل شيء ما. الحياة بعد موت صديق إعادة بناء بطيئة، ومؤلمة. تدريب شاق لاسيما إن لم يكن في دواخلنا مشروع يقودنا. شيء خفي ومشوش. مُضمّن يشبه ما نجده بين سطور كتاب. لهذا السبب لا يكون النسيان.

ـ أنا حزينة. قالت.

لم أقل شيئا؛ لأن الحقيقة هي أننا قتلنا ذات الشعر المجعد. كنا نعرف أنها تتوهم، نعرف أنه هوس ذئبي، ومع ذلك تركناها في وهمها وهوسها. لم نقل أنت واهمة، أنت مهووسة. ولم ندفعها إلى طبيب. في دواخلنا نحن الاثنين كنا نشجعها على أن تستمر في وهمها، وفي هوسها. يدرك كل واحد منا ما يدور في ذهن الآخر. أفراح التي تعرف سري مثلما أعرف أنا سرها.

أدرك الآن أن أفراح يسيطر عليها الندم. أنا أيضاً أعيش الحالة ذاتها، لكن الإحساس بالذنب، وتأنيب الضمير، والندم لن يمنحنا الاطمئنان اللازم. أردناها أن تموت. لماذا؟ لم يكن في مقدورنا آنذاك أن نفهم إنما كان في مقدورنا أن نشعر. والآن نحن لا نشعر لكننا نريد أن نفهم.

رغم أنها ثملة أعتقد الآن أنها أرادت مني أن أعرف. أن أفهم. أما أنا فقد تصورت في ذهني ما حدث. لم أستطع أن أسألها السؤال الذي طفا فجأة؛ ولعل هذا ما جعلني أستعجل المغادرة. استعجلتُ لأنني فكرت في أن الأمور ستكون على ما يرام. حتما سأراها مرة

أخرى؛ لكن حينما تهدأ وتعود إلى طبيعتها؛ لذلك لم آبه بما حصل لها، ولم أفكر بما قد يحصل. لقد أخطأت، ولم أنتبه إلى ما كانت تريد مني أن أفهم. لم انتبه إلا بعد أن عرفت أنها جُنّت. نُقلت إلى المستشفى، وبقيت هناك، وبقيت أيامها الأخيرة غامضة؛ لأنها المرة الأخيرة التي رأيتها.

بعد أن ودّعتها عدت إلى الفندق. لم أجد أرس. صعدت إلى الغرفة، وآويت إلى الفراش البائس بؤس الفندق الذي انهار عقب موت قائد. اخترت كتابا كيفما اتفق. فتحت النافذة، وكورت الوسادة لكي اسند ظهري وأنا في صحبة الجميلات النائمات حتى أنني غفوت وأنا أقرا.

استيقظت على صوت الباب، فتحت فأعطاني منظف الغرف رسالة.

فتحتها وقرأت

عزيزي

لا بد أنك تتذكر نقاشنا الأخير. في الحقيقة كنت أريد أن استفزك لكي ترحل؛ لأن القطار المتجه إلى أثيوبيا حان وقته.

وأنت تقرأ هذه الرسالة سأكون أنا أصعد جبلا لكي أسبق القطار إلى قمته.

أقول ربما.

تخيل! تَمَلّ من القطار وهو يئن صاعدا الجبل، تغادره وتصعد لكي تنتظره. لو قلت هذا لأحد لن يصدقني.

حتى يصل القطار سأفكر فيك. حتما سأتمنى أن تكون معي. هناك في قمة الجبل نصغي إلى غناء العصافير التي راقها الزمان والمكان.

اعذرني. نسيت أن أخبرك. لقد مات واشو عثمان. في الحقيقة لم يمت إنما جف كالحشرات. نقرت رأسه بعظمة أصبعي فتفتت.

بعد أن عكر أيامي ولياليي خوف يتحول أحيانا إلى فزع داخلي؛ لأنني لا أعرف متى أموت. حالة قديمة عادت إلي فجأة. منذ زمن أكدت جدتي أن السبب هو أمي التي أرغمتني على تقبيل أبي عندما مات. آنذاك كان عمري أربع سنوات، وكما نعرف فإن حضور موت شخص ما يترك أثرا لا يمحى في نفوس الأطفال. لأتحدث بصراحة لقد كرهت فكرة الموت، لكن إن كنت سأموت فأريد أن يتم ذلك من غير آلام. لقد حسدت واشو عثمان. تعرف لم؟ لأنه مات من دون أن يشكو مرضا، ما حدث أنه قبل وفاته بأسبوعين وفي كلمات بسيطة. جف ثم مضى، كما لو أن نسيما حمله. لم يتعذب، ولم يقض عليه أي مرض.

سأعترف لك.

لم يكن واشو عثمان يتكلم إنما كان يقول كلاما غير مفهوم. قطعوا لسانه أثناء الحرب الصومالية. وما كنت أزعم أنه ترجمة لما قاله فهو لي.

صديقك أرس

كنا سبعة. وأنا الآن وحدي. ياسمين مرضت بسرطان الثدي.

الغرابة في أن ينتج عن سبب كعضة نتيجة رهيبة كالسرطان، أن يتضح البون الشاسع بين تفاهة السبب وهول النتيجة.

وددت لو ألمس نهدها. تقدمت لكنني لم أتجرأ. حاولت أن أتخيل السرطان. «السرطان الذي يقال عنه الموت لكنه أيضاً الحياة، الحياة الأدبية. الخلية الخبيثة خالدة تتحدى الموت. السرطان الذي ليس نذرا مرهونا بتقوى الأتقياء. ليس هو استيهام نخدع به أنفسنا؛ إنما هو عاطفة مشبوبة تلهمنا سواء السبيل، وتهدينا إلى أن نكشف النقاب عن أسطورة تسمى أسطورة الرعب».

ليس في نيتي أن أتحدث عن موتها. علي أن أعترف أن هول موتها يفيض عن مفاهيمي المعتادة، ويدفعني إلى البلاغة التي لا أحبها. لدي سبب حقيقي للاعتقاد أنني إن تحدثت عن موتها فذلك يعني أنني سأنساه وأنا لا أريد أن أنساه. الروائيون يفعلون ذلك؛ يدونون أحداثا ووقائع كي لا ينسونها. أنا لم أنس. ياسمين في مرضها وانطفائها مدونة بحبر لا مرئي في ذاكرتي.

يكفي أن أقول لكم: إنها انطفأت كشمعة، في تلك السن التي لا تعرف الموت لتصبح جيبوتي مظلمة. أظنه النبي أرميا الذي أستشهد بما قال: كم هي وحيدة هذه المدينة المملوءة بالسكان! لقد باتت كأنها أرملة، سيدة الأمم. تلك مدينة جيبوتي في اليوم الذي ماتت فيه ياسمين.

في انتظار من يأتي ليخرجها. ليغسلها ويكفنها ويدفنها انتظرت. لم يجيء أحد. قريبا من المستشفى وجدت مقهى. طاولات قليلة

على الرصيف المقابل لمحطة القطار الذاهب إلى إثيوبيا. ناديت النادل أكثر من مرة لأنه مشغول بصب لعانته على العاهرات الإثيوبيات اللاتي يمارسن مهنتهن، جالسات من غير أن يطلبن شيئا؛ لأنهن يرسلن الأموال إلى أثيوبيا.

طلبت وانتظرت. في فترة الانتظار كنت أفكر: وطن الإنسان هو الذي يعرق فيه. يبكي فيه ويضحك. يعيش مستورا بحيث يبني بيتا عائليا. لكن إذا كان الإنسان وحيدا مثلي الآن، في هذا المكان الذي قادتني إليه يد الله؛ هل علي أن اقبل به أم أعود؟. يقال: «نحن لا نعرف مما نفرح، ولا مما نحزن. الخير يجلب الشر، والشر يجلب الخير. نحن نسير ليلا ونهارا تحت ما هو مكتوب فوق. حالة غباء في أمانينا، في فرحنا، وفي حزننا على السواء».

قطعت أفكاري امرأة. جاءت وجلست أمامي.

ـ أقرأ كفك؟ سألتني.

من غير أن أفكر مددت لها يدي.

لم أسمع سوى تمتمتها، ولا أدري ما الذي دار في ذهنها.

ـ أنت. قالت لي. ستحصل على ما تريد.

ترددت قبل أن تقول: لكنك لن تكون سعيداً أبداً.

الفهرس

الكتاب الأول: استطرادٌ ٥

الكتاب الثاني: تداعٍ ٤٩

الكتاب الثالث: حاشية ١٦٩